فزّان
ودورها في انتشار الإسلام في إفريقية

للدكتور حسين مؤنس
مدير معهد الدراسات الاسلامية في مدريد

الصحراء الكبرى وجزائرها

في خريطة الصحراء الافريقية الكبرى تحتل فزان مكاناً ممتازاً ، ففي بحر الرمال الشاسع هذا ، الذي لا يُشبَّه الا بالمحيط الأطلسي بل الهادي، تقوم الواحات ومجموعاتها بوظيفة حيوية كبرى ، فهي الجزائر والمعابر التي استطاع البشر عن طريقها عبور هذه الصحراء من طرف الى طرف، وليس من الغريب والحالة هذه ان نجد الواحات تسمى بالفعل في كتب جغرافيينا بالجزائر ، في حين ان مصطلح الواحات يكاد ان يكون عَلَماً على ثلاث من مجموعات الواحات المصرية : الداخلة والخارجة والفرافرة التي تسمى ايضاً الفرفرون .

وتسمية واحات الصحراء الكبرى بالجزائر تدل على ان العرب كانت لديهم فكرة واضحة عن الصحراء الكبرى واتساعها الشاسع وطبيعة ارضها وصعوبة عبورها وقسوة العيش فيها ، بل كانت لديهم فكرة واضحة

عن الحزام الصحراوي الذي يحيط بالكرة الأرضية في نصفها الشمالي فيما بين عرضي ١٠° و ٤٠° على وجه التقريب ، واليك فقرة من كلام ابن حوقل تصور ذلك بأجلى بيان .

قال في حديثه عن رمل الجِفار ، اي صحراء الجفار ، وهي المساحة الممتدة من شرقي دلتا النيل الى برية (= صحراء) فاران ومدين شمالي شبه جزيرة العرب : « ويتصل هـذا الرمل [١] برمل نَفْزاوة [٢] من ارض المغرب ورمل سِجِلْماسة [٣] ، ويأخـذ [٤] الى ارض أوْدَغَسْت ، وذلك انه يأخذ من الجفار مُغرِّباً عنها مع جبل المقطم ، ويمتد على ساحل النيل من شرقه وغربه وجنباته ، والنيل يشقه بنواح كثيرة [٥] ... ويمضي على بلد الشفوف [٦] ويستبطن طريق الباطن [٧] ، ويأخذ على غربي عقبة برقة ماراً على الطريق الأعلى وخلف طريق الجادة ، ويقع شيء منه الى ساحل

---

١ الرمل هنا يقابل لفظ الصحراء .

٢ رمل نفراوة يريد به الصحراء الليبية .

٣ رمل سجلماسة هو الجزء الغربي من الصحراء الكبرى .

٤ اي يتجه . وأودغست ، وتكتب أيضا اودغشت ، اقليم كان يقوم حول مدينة بنفس الاسم على الطريق الجنوبي للصحراء الكبرى جنوبي المغرب الاقصى ، ويقع شمالي نهر السنغال فكان المسافرون يخرجون من سجلماسة ويعبرون الصحراء جنوبا الى اودغشت .

٥ المراد ان النيل يقطع اتصال هذه الصحراء التي تبدأ من جزيرة العرب ، وابن حوقل يذكر هنا بعض المدن الواقعة على النيل في مصر فتركت ذكر ذلك .

٦ لم افهم المراد تماما بلفظ الشفوف .

٧ كانت لديهم ثلاث طرق لاختراق المغرب من الشرق الى الغرب وكذلك الصحراء في نصفها الاعلى : طريق الباطن وهو طريق صحراوي صرف يمر بفزان في مستوى مرزوق ، وطريق الجادة وهو طريق الساحل ، والطريق الاعلى وهو يمر جنوب المرتفعات الفاصلة بين الشريط الساحلي والنواحي الداخلية .

برقة (وينقطع) [1] ، ولا ينقطع ما على الطريق الأعلى منـــه حتى يرد قبلة [2] أجدابية وسُرْت فيكون في وسطه [3] ، ويأخذ عن الطريق مُغرِّباً الى صحارى جبل نفوسة ونفزاوة [4] ويرتفع الى لَمْطة [5] ورمال سلجماسة ويتصل برمل أوْدَغَسْت المتصل بالبحر المحيط . ويتصل رمل الجفار [6] من ناحية القِبْلة في نفس البر الى ايلة ورمال القُلْزُم [7] ويفترش بالساحل [8] وطريق جادة مصر [9] ، ويمضي الى مدينة يثرب ممتداً على ما جاور ارض لحم وجَذام وجُهَيْنة وبَلِيّ [10] وما دنا من ارض تبوك ، ويجتاز بوادي

---

١ اي انه بعد برقة ينتهي طريق الساحل في حين يستمر الطريق الاعلى الذي يسير جنوب ذلك .

٢ القبلة في المصطلح الجغرافي هي الجنوب ، ولكن المراد بها هنا ناحية صحراوية مسكونة تقع جنوبي منطقة من مناطق الساحل الآهلة ، وقبلة اجدابية وصرت هي واحة الكفرة . وسنتكلم عن القبلات بالتفصيل في صلب المقال فيما بعد .

٣ اي هنا يصل الطريق الاعلى الى منتصفه .

٤ جبل نفوسة ونفزاوة يقع في الشمال الغربي لليبيا حاليا .

٥ لمطه ناحية صحراوية صغيرة كانت تقع الى شمـال اودغشت وكانـت مشهورة بنوع من التيوس الكبيرة يسمى اللمط سميك الجلد ، وكان هذا الجلد يستخدم في صناعة الدروع الجلدية التي اشتهر باستعمالها المرابطون وكانت اخف وزنا واسهل استعمالا من دروع الحديد .

٦ من هنا سيتتبع ابن حوقل سير الحزام الصحراوي في آسيا .

٧ رمال القلزم هي شبه جزيرة سينا .

٨ أي : ويستمر موازيا للساحل ويتسع هناك .

٩ طريق جادة مصر هو الطريق من الحجاز الى مصر محاذيا ساحل البحر الاحمر ثم مخترقا صحراء سيناء .

١٠ منازل هذا القبائل كلها تقع على ساحل البحر الاحمر ، وطريق التجارة الرئيسي من مكة الى الشام يمر بها .

القرى ماراً بديار ثمود مُشرّقاً الى جبلي طيء[1] ويتصل برمل الهبير[2]، ورمل الهبير متصل برمل البحرين ورمال بادية البصرة وعُمان الى ارض الشحر ومهرة. وجميع ارض الشحر ومهرة رملٌ من البحر الى الجبل[3]. (ويعبر البحر[4] فيكون تجاه الشحر ومهرة من بلاد الزّنج[5] رمل كهيئة رمل الشحر) ويحاذي رأس الجمجمة من نواحي حصن ابن عمارة وأرض هُرموز، فيمر شمالاً الى اقاصي خُراسان على أعمال الطّبَسَين وهَراة ورمال مَرْو وسَرْخَس. ويُشرّق بعضه الى أعمال السِّند والدَّيْبُل و (سوبارة) وسِندان وصَيْمور ماراً في براري الهند الى التِّبت وبلاد الصين، فيشرع في البحر المحيط[6]. وجميع الرمل على وجه الأرض متصل متناسب، لا أعرف فيه بلداً رَملُه ذو خصل الا القليل، وكذلك جبال الأرض كلها متناسبة متصلة الا القليل اليسير منها[7]. »

---

١ جبلا طيء كانا على طريق التجارة الرئيسي من وادي القرى الى شمال شرقي شبه الجزيرة وبلاد العراق.

٢ رمل الهبير هو صحراء النفوذ تقريبا.

٣ اي كلها رمل من البحر الى الجبل.

٤ اي ان رمال الصحراء تمتد عبر خليج فارس.

٥ من هنا يمضي ابن حوقل متحدثا عن صحراوات آسيا حتى صحراء جوبي في الصين.

٦ في تصور ابن حوقل ان صحراء جوبي تمتد الى ساحل المحيط الهادي ثم تستمر سلسلة الصحاري وراء المحيط الهادي، ولم يخطر بباله قطعا ان هناك الامريكيتين واستمرار حزام الصحارى فيهما، ولكن كان تصوره ان استمرار صحارى الصين هو الصحراء الافريقية.

٧ هذه هي خلاصة نظريته في استمرار الصحاري، واتصال بعضها ببعض. وكانوا يقولون ايضا ان جبال العالم كلها متصل بعضها ببعض وكذلك بحاره. وفيما يتصل بالانهار كانوا يرون مثلا ان كل انهار افريقية صادرة من النيل أو هي النيل نفسه في اتجاهات شتى واهمها =

ولم ينفرد ابن حوقل بذلك القول بل ردده بعد ذلك الادريسي وابن خلدون ، وهذه واحدة من الحقائق الكثيرة التي وصل اليها علماء العرب بذكائهم وحسهم العلمي وإخلاص الأفذاذ منهم لما تولوه من فروع العلوم، ولقد وصل هؤلاء الاعلام الى اقصى ما يستطيع الوصول اليه العالم المُفْرَد من العلم بالأرض وما عليها بوسائله المحدودة المتواضعة ، ولكي يصل العلم الجغرافي الى ما وراء هذه الحدود كان لا بد من نظم سياسية واجتماعية جديدة تنمو في ظلالها اشجار معرفة اضخم حجماً وأوفر ثمراً وأكثر ارتفاعاً .

القوافل والرحلات وانتشار الاسلام

ونعود الى ما استطردنا عنه من الكلام على الصحراء الكبرى وعلم العرب بها فنقول انهم عرفوا الطرق الرئيسية التي تشقها من شرق الى غرب ومن شمال الى جنوب ، وعرفوا ووصفوا مراحل كل طريق منها وما عليه من الجزائر أو الواحات التي تحط بها القوافل لتستريح وتجدد الزاد والماء، وعرفوا كذلك ما بين كل مرحلة من هذه والتي تليها من المسيرة بالأيام والأميال ، وتحدثوا عما يجده المسافر من أصناف الزاد في هذه أو تلك ، وما يمكن أن يُحمل اليها من البضاعة وما يمكن ان يُصدر به منها ، وهذه كلها تفصيلات ومعلومات نقرؤها نحن اليوم عبوراً دون أن نفكر في الجهد الذي بذله اولئك الناس في جمعها وترتيبها وفي العقل

= عندهم ثلاثة : نيل مقدشو وهو النيل الازرق وبه كانوا يربطون كل ما عرفوه من انهار غرب افريقية ، ونيل مصر وهو الذي يصل الى خط الاستواء بما في ذلك انهار بحر الغزال ، ونيل غانه وهو نهر الكونغو والنيجر وكل ما يتصل بهما ويتفرع عنهما .

ابن حوقل ص ١٥٧ ـ ١٨٥ .

العلمي الذي قدمها لنا على هذه الصورة . ثم ان تفاصيل هذه الطرق لا تستوقف انتباهنا اليوم ولكنها في الحقيقة كانت الشرايين ومراكز الاعصاب التي صنعت ذلك العالم العربي الذي نعيش فيه اليوم ونفخر به. فان قوافل التجار والحجاج هي التي صنعت النسيج الذي يجمع اليوم عالم العرب ، ولولا هؤلاء المسافرون المغامرون لما ظهر الى الوجود إلا بلاد عربية متفرقة ، بل ربما لم يكن من الممكن ان تتحقق لها صفة العروبة على النحو الذي نراه اليوم ، فان مفهوم العروبة نفسه مفهوم فكري علمي روحي قبل أن يكون مفهوماً سياسياً وقد ظهر كنتيجة حركة الرحلات كما ينشأ الثوب نتيجة لحركة المنسج ، وهؤلاء العلماء والطلاب والحجاج والتجار الذين كانوا يخرجون في القوافل ويتنقلون بين بلاد العرب هم الذين نسجوا رقعة العروبة بجهدهم الوئيد المنتظم الذي لا يكاد يحس ، كأنه سريان الدم في الجسد دون احساس من صاحبه ، وبينما كان رجال السياسة في البلاد العربية المختلفة يحارب بعضهم بعضاً ويكيد بعضهم لبعض عاملين بهذا على تقطيع الاوصال وتفتيت عالم العرب كان علماء الاندلس والمغرب يمدون جسراً ضخماً بين الشرق والغرب برحلاتهم التي لم تنقطع ، وكان علماء مصر يمدون جسراً آخر بين افريقية وآسيا برحلات الطلب والدرس والحج ، وكان علماء العراق يمدون جسراً ثالثاً بأسفارهم الى الشام ومصر والحجاز وهكذا . فاذا كان هناك اليوم شيء اسمه العالم العربي فهو من عمل اهل العلم والحجاج والتجار، وخذ أي واحد من كتب تراجم العلماء واقرأ مواده واحدة بعد اخرى تر بعينك دودة القز المباركة وهي تنسج خيوطاً لا تراها العين تألف منها فيما بعد نسيج عالمنا العربي .

فزان : طريق رئيسي بين المغرب السودان الأوسط

ليس هذا مجرد استطراد مع خواطر وانما هو دخول في صميم الموضوع،

فان فزان موضوع هذا البحث جزيرة هامة في بحر الرمال الافريقي الواسع الذي لم يكفّ طلاب العلم والتجار والحجاج عن اجتيازه والمغامرة بأنفسهم في أمواج كثبانه ، فقد عرف العرب ثلاثة طرق رئيسية لاجتياز شمال القارة الافريقية من شرق لغرب : طريق ساحل البحر الأبيض ، وهو الذي رأينا ابن حوقل يسميه طريق الجادّة ، وطريقاً ثانياً يسير جنوب سلسلة المرتفعات والجبال الساحلية ، وهي مرتفعات تبدأ في الشرق عند السلّوم على حدود مصر وكانت تسمى بالعقبة الكبرى او عقبة السلوم ، وتأخذ هذه المرتفعات أول الأمر صورة حوائط صخرية تطل على البحر ثم تتقهقر الى الجنوب في منطقة الجبل الأخضر أو جبل نفوسة أو جبال نفوسة ونَفْزاوة وتمتد بهذا الشكل حتى تونس مع انقطاعات هنا وهناك، ثم تبدأ بعد ذلك جبال الأطلس او جبال درن وتستمر حتى المحيط الأطلسي . على السفوح الجنوبية لسلسلة المرتفعات هذه ، سار الطريق الثاني الذي عُرف بالطريق الأعلى وهو يمر ابتداء من غربي تونس خلال منطقة الشطوط او البحيرات .

اما الطريق الثالث فهو الذي نستطيع ان نسميه طريق القبلات وهي تسمية مقتبسة من ابن خلدون ، فهو يقول في الفصل المُبدع المسمى : « في ذكر مواطن هؤلاء البربر بافريقية والمغرب » (٩٨/٦٦ وما يليها) ان المغرب ينقسم عرضاً الى مناطق او نطاقات جغرافية يلي بعضها بعضاً من ساحل البحر الى بلاد السودان ، وهذه المناطق هي :

١ ــ البلاد الساحلية من المغرب الأقصى والأوسط وافريقية ، وهو يسمي هذه المنطقة فيما بعد بالتلول وذلك من حيث الجو والنبات ، وهو يسمي ذلك بمزاج التلول وهو مصطلح عنده يقابل ما نسميه بمناخ البحر الأبيض .

٢ ــ المرتفعات والجبال التي اشرنا اليها وهي عنده « تخوم تلك التلول

ممتدة من لدن البحر المحيط في المغرب الى برْنيق من بـلاد برقة » .
ومبدأ سياج الجبال هذا عند المحيط الأطلسي يسمى جبال درن واستمرارها في المغرب الأوسط افريقية يسمى الأوراس ، ومجموعها هو ما نسميه نحن بجبال الأطلس .

٣ ـ نطاق الجَريد وهو نطاق « البسائط والقفار وأكثر نباتها الشجر » وهذه المنطقة هي التي نسميها نحن اليوم بالشطوط ، والشط هو البحيرة الصغيرة الضحلة ، وهو يذكر هنا شط الجريد وشط أمرير وشط حُضنة أو هدنة والشط الغربي وما اليها ، وهو يرى ان الجريد كناية عن النخل ، فهذا النطاق هو نطاق غابات النخيل ،وهو على حق ، فهنا تقوم غابات النخيل المغربية الكبرى ، وفي هذا النطاق يجري الطريق الثاني الذي يسميه ابن حوقل والادريسي بالطريق الأعلى وقد تحدثنا عنه .

٤ ـ والى جنوب هذا النطاق المستعرض يسير نطاق القبلات ، وواحدتها قبلة .. وهذه القبلات مجموعات من الواحات ينشأ من كل منها اقليم مأهول عامر الأرض بالزراعة اذا كثر الماء أو بغابات النخيل اذا لم تكن هناك إلا العيون . وهذا النطاق لا يسير كله على مستوى عرضي واحد ، بل قد يقترب من نطاق الشطوط حتى يتصل به ، وقد يبتعد جنوبه مئات الكيلومترات . وفي بعض الأحيان يختلط نطاق الجريد بنطاق القبلات احدهما بالآخر حتى يصيرا نطاقاً واحداً كما نرى في حالة بِسكْرة وهي قبلة قُسنطينة في غربي الجزائر الحالية : فان بسكرة هي قاعدة نطاقي الجريد والقبلات معاً ، وهذه الأخيرة تمتد حتى تشمل مناطق واحات تُقُّوت وغَرداية ، وهما منطقتان شبيهتان بمنطقة فزان من بعض الوجوه .

ولما كانت فزان ومناطق القبلات واقعة في هذا النطاق ، فسآتي بكلام ابن خلدون على تواليه هنا فهو عظيم الأهمية بالنسبة للبحث الذي نعرضه في هذه السطور :

« وفيما يلي التلول منها وما يقاربها بلاد الجريد ذات نخل وانهـار ، ففي ارض السوس قبلة مراكش تَرودانت والفرى فويان وغيرها ، بلاد ذات نخل وانهار ومزارع متعددة عامرة .

وفي قبلة فاس سِجلْماسة وقراها : بلد معروف ، ودِرعة ايضاً وهي معروفة .

وفي قبلة تلمسان فِجيج : قصور متعددة ذات نخل وانهار .

وفي قبلة تاهرت القصور ايضاً ، بلاد متتالية على سطر من المشرق الى المغرب ، اقرب ما اليها جبـل راشـدة وهي ذات نخـل ومزارع وانهار .

ثم قصور مبنيات (أو مسورات أو محصنات) تناهز المايـة واكـثر قبلة الجزائر ذات نخل وانهار .

ثم بلد واركلي قبلة بِجاية، بلد واحد مستبحر العمران كثير النخل . وهي في سمته الى جهة التلول بلاد ريغ تناهز الثلثماية ، منتظمة على حفافي وادٍ ينحدر من المغرب الى المشرق (وبين بلاد ريغ والتـل بلاد الزاب) تناهز مائة من البلاد فأكثر ، قاعدتها بسكرة من كبار الامصار بالمغرب ، وتشتمل كلها على النخل والانهار والفدن والقرى والمزارع .

ثم بلاد الجريد قبلة تونس، وهي نَفْطَة وتَوْزر وقَفْصة وبلاد نفزاوة تسمى كلها بلاد قَسْطيلة (قسطيلية) مستبحرة العمران مستحكمه الحضارة مشتملة على النخل والانهار .

ثم قابس قبلة سوسة ، وهي حاضرة البحر من اعظم امصار افريقية، وكانت دار مُلك لابـن غانية كما نذكره بعد ، وتشتمل على النخـل والانهار والمزارع .

ثم فزان و ودّان قبلة طرابلس : قصور متعددة ذات نخل وانهـار وهي أول ما افتتح المسلمون من ارض افريقية لما أغزاها عُمَر بن الخطاب عَمْرو بن العاص .

ثم الواحات قبلة برقة ، ذكرها المسعودي في كتابه . »

الى هنا ينتهي كلام ابن خلدون بخصوص القبلات .

٥ ــ الى جنوب نطاق الجريد هذا نجد بحر الرمال الواسع الذي يسميه ابن خلدون : « الرمال المتهيّلة الماثلة حَجْراً بين بلاد السودان وبلاد البربر ، وتعرف عند العرب الرحالة البادية بالعِرق ، وهذا العرق سياج على المغرب من جهة الجنوب مبتدىء من البحر المحيط وذاهب في جهة الشرق على سمت واحد الى ان يعترضه النيل الهابط من الجنوب الى مصر ، فهناك ينقطع . وعرضه ثلاثة مراحل وازيد . »

« ويعترضه من جهة المغرب الأوسط أرض محجرة تسمى الجمّادة من دون بلاد مُزاب الى بلاد ريغ . »

ومن ورائه ــ أي من وراء العرق ــ مجالات المتلثمين كما قلناه : مفاوز معطشة الى بلاد السودان . »

« وما بين بلاد الجريد هذه والجبال التي هي سياج التلول بسائطُ متلون مِزاجها بمزاج التلول تارة وتارة بمزاج الصحراء بهوائها ومياهها ومنابتها وفيها القيروان وجبل أوراس معترض في وسطها الحُضنة حيث كانت طبنة ما بين الزاب والتل . »[1]

نطاق القِبلات والطريق الصحراوي

واذن فلدينا على الحدود الجنوبية للمناطق الغنية المأهولة من المغرب ــ

---

١ ابن خلدون ، العبر حـ ٦ ، ١٠٠ ــ ١٠١ . وقد نقلت في هذا العرض فقرة « العرق » من موضعها طلبا للايضاح واستعنت في تقويم النص بالترجمة الفرنسية التي عملها البارون ماك ــ جوكين دي سلان واعاد نشرها بول كازانوفا سنة ١٩٢٥ ــ جـ ١ ص ١٨٦ وما يليها . انظر ثبت المراجع .

وهي مناطق الساحل فالتلول فالجريد أو الشطوط ـ منطقة رابعة أو نطاق رابع من الجهـات المأهولة يسير من الشرق الى الغرب (أو العكس) ايضاً وهو نطاق القبلات ، وهذا النطاق قد يقترب من نطاق الشطوط أو الجريد فيصيران نطاقاً واحداً كما نرى في تونس والجزائر ، وقـد يبتعد عن نطاق الجريد فتفصل بينهما رمـال الصحراء كما نرى في ليبيا والمغرب الاقصى ، ولكنه رغم ذلك الاختلاف في الارتفاع شمالاً أو الانخفاض جنوباً يظل نطاقاً متصلاً يتكون من مجموعـات من جزائر الصحراء أو الواحات ، وكل مجموعة منها تكوّن ناحية يسميها ابن خلدون بالقبلة أي الجنوب بالنسبة لأقاليم الساحل . والمناطق التي يتكون منها هذا النطـاق تقوم سياجاً فاصلاً ونهائيـاً بين المغرب كله والصحراء الكبرى ، وربما وقعت بعض مناطق هذا النطاق في الصحراء نفسهـا كما نرى في حالة ودّان وفزان ، ولكن فزان في هذه الحالة تعتبر الحد الفاصل النهائي بين ليبيا والصحراء جنوبها رغم أن نفس رمال الصحراء تفصلها عن طرابلس ، ومثل هذا يقال عن منطقة السوس وسجلماسة في المغرب الأقصى .

خلال هذا النطاق سار الطريق الثالث الذي يقطع المغرب كلـه من الشرق الى الغرب كما ذكرناه . وهو في هـذه الحالة طريق صحراوي كطرق الجزيرة العربية : خط يصل بين جزائر الواحـات ، وهو ككل طريق صحراوي حافل بالمتاعب والمشاق ولا يخلو من الأخطار ، ولكن كانت له ميزاتـه وخصائصـه التي جعلته عامراً بالحركـة طوال العصور الوسطى وفترة طويلة من العصور الحديثـة حتى قبيل فترة الحرب العالميـة الأولى .

فأما الميزة الأولى فهي أنه كان يسير بعيداً عن السلطان المباشر لدول المغرب التي كانت ترهق القوافل والتجار والسُّفـار بالضرائب والأتاوات من كل صنف ، ومن أسف ان دولنا في العصور الوسطى لم تنتبه ابداً الى الخير العميم الذي يعود عليها من وراء حماية التجار والصناع والزراع ،

ولم تكف ابداً عن قتل الأوزة التي تبيض بيضة الذهب ، فالى جانب ما كانت هذه الدول (ورجالها) تفرضه من الضرائب والمغارم على القوافل لم تكن قادرة على حمايتها وتأمين المسافرين فيها ، وظلت مسؤولية أمن القافلة على أهل القافلة نفسها ، أما على الطريق الصحراوي الذي نتحدث عنه فلم تكن هناك – في الغالب – دول او وزراء او كتّاب او جهابذة او مكّاسون أو عشّارون وانما كانت هناك قبائل ، والقبائل التي تقوم منازلها على طرق التجارة حريصة دائماً على ان تكسب ثقة القوافل والتجار لأنهم مصدر رزق وحياة لها ، والأمر هنا لا يقتصر على ان القبيلة تجبي اتاوات خفارة على القوافل ، بل هناك ما هو اهم من ذلك ، وهو ان طريق القوافل هو الصلة بين القبيلة والعالم الخارجي ، عن طريقه تصرّف ما يزيد على حاجاتها من منتجاتها اليدوية وتحصل على الآلات والأسلحة ومصنوعات المدن ، وعن طريق طرق التجارة تظل متصلة بالحياة والدنيا، ومن الطريف بالنسبة لحياة الصحراء ان القبيلة التي لا يمر بمنازلها طريق تجاري او التي لا تسعى للاتصال بهذه الطرق بصورة ما لا بد ان تضعف وتتدهور وتتفكك وتتلاشى .

ولهذا فكل القبائل القائمة على طرق التجارة تعنى بالقوافل والتجار وتخفرهم وتؤمنهم ما داموا في ارضها . اما الذين يعتدون على القوافل فهم الصعاليك والنهابون من خلعاء القبائل او شراذم القبائل التي تدهورت وتفككت .

ولهذا كان الإقبال على طرق التجارة الصحراوية دائماً عظيماً . وطريق القبلات هذا بالذات كان دائماً أعمر وأكثر انتظاماً واضخم حجماً من طريق الجادة والطريق الأعلى .

والسبب الثاني هو ان تكاليف السفر على الطريق الصحراوي ارخص وأقل كلفة ، فان المسافر عليه لا يحتاج الى اكثر من الضروري من

الطعام والشراب في حين ان طريق الجادة مثلاً يمر بالمدن وكبار القرى مما يستتبع الانفاق الكثير في الطعام والمبيت ، خلا ما ينفق في الأسواق .

والسبب الثالث ان هذا الطريق اسرع ، فهو قصير نسبياً ومباشر ، يخرج من منزل لمنزل قصداً دون ان يتوقف في مدن او قرى ، وهذا بطبعه يستتبع ضبط المواعيد ، فاذا كانت القافلة ستشرع في المسير في فجر اليوم التالي كان الناس في مواضعهم قبل الموعد ، في حين ان القوافل المارة بالمدن يظل طبل التجمع يدق في المناخ طوال اليوم ليجتمع الرفاق ويشرعوا في السير صباح اليوم التالي . وفي مدن كبيرة مثل القيروان وطرابلس والقاهرة كان الطبل يدق ثلاثة ايام قبل المسير .

والسبب الرابع ان هذه الطرق الصحراوية طرق تقشف ومشقة ومن ثم كانت اقرب الى مزاج الحجاج من الأتقياء والصوفية والمرابطين ومن اليهم ، ومن هنا فقد كانت طرق الصحاري دائماً طرق اسلام ونشر للدين ، وهذه ظاهرة تتجلى لنا في تاريخ الحركة السنوسية ، وفيما يتصل بموضوعنا سنلاحظ ان طريق « طرابلس – فزان – كوّار – السودان التشادي كان من اعظم المسالك التي سار فيها الاسلام لينتشر في افريقية.

ونمر الآن مسرعين بمراحل ذلك الطريق حتى تتبين لنا اهمية فزان فيه . يبدأ هذا الطريق عند القُصير على شاطىء البحر الأحمر ويصل الى النيل عند قِفط ثم الى الخارجة في الواحات الخارجة ومنها الى البِلاط في الواحات الداخلة ، ويسترسل الى واحات الكُفرة ثم يصل الى فزان عن طريق واحات واو الكبير و واو الناموس وبير معروف ، وهو يدخل فزان عند تُمّو فزويلة فمرزوق ، وهذه الاخيرة كانت قلب فزان وأهم مراكزها في العصور الماضية .

ومن هناك يخترق الطريق هضبة الحَمّادة الحمراء ويصعد حتى غدامس ثم يتجه غرباً خلال منطقة كثيرة الواحات جنوب الجمهورية الجزائرية

الحالية ، وهي منطقة الأحساء أي الآبـــار وفيها اكثر من اربعين واحة يبدأ اسم كل منها بلفظ حَسِّى ،وهي اليوم ايضاً منطقة البترول الجزائري. وهي تشمل ما يعرف اليوم بعمالتي الواحات والسَّاوَرَة في صحراء الجزائر ، وتنتهي هـذه السلسلة عندما يصل الركب الى الحمراء قرب منبـع واد درعة، وهناك تنقسم القافلة قوافل فمنها ما يتجه شمالاً بغرب نحو سجلماسة والسوس ومنها ما يتجه رأساً الى شنقيط ومنها ما يتجه جنوباً بغرب الى بلاد السودان الغربي وسنلم ببعض نواحيها بعد قليل .

وعند كل مرحلة من مراحل هذه الطريـــق تتفرع طرق اخرى ، فعند قُفط في مصر يشرع الطريـق الذي يسير شمالاً محاذياً النيـــل الى الفسطاط والقاهرة ويسير جنوباً الى اسوان . ومن قفط يتفرع ايضاً طريق الى أسنا ومنهـــا الى دارفور وكُردفان وواداي . وعند الكفرة يشرع طريق الى الشمال الغربي الى اجدابية ، ومن هذا يتفرع طريق آخر الى العجيلة ، واجدابية قريباً من خليج سرت والعجيلة عليه .

ومن فزان تتفرع طرق شتى في كل اتجاه سنتكلم عن بعضها بعـــد قليل .

وفي منطقة الأحساء تلتقي طرق كثيرة آتية من نواحي الجزائر وخاصة قسطنطينة وبجاية والجزائر ، وقد سبق أن قلنـــا إن نطاق القبلات يختلط هنا بنطاق الجريد ويصيران نطاقاً واسعاً واحداً كان في العصور الوسطى القلب الحقيقي للقطر الجزائري الذي كان يسمى اذ ذاك بالمغرب الأوسط، فهناك تتصل مناطق بسكره و واركلي وهُدنة أو حُضْنة والزاب ومزاب وتيزي بعضها ببعض ، وهي مراكز العمران والثروة والمزارع والغابات والمراعي التي اعتمد عليها رخاء المغرب الأوسط في العصور الوسطى .

وفي هـذا الجزء الأوسط من الطريق قد تتجه القافلة من غـــات الى الجنوب الغربي فتخترق اقاليم الهُقار الذي يسمى الآن بأهُجار ثم يصعد شمالاً بشرق حتى يصل الى تِندوف قرب الحدود المغربية .

فـــزان

وفزان دون شك اكبر مراحل هذا الطريق واكثرها واحات ومرافق ومعايش ، بل هي اكبر مجموعة واحات في الصحراء الكبرى كلهـــا ، وهي نتيجة لهذا اغنى المراكز الصحراوية واكثرها سكاناً ، تطل عليها من الشمال جبال متوسطة الارتفاع تتكون من جبل السوداء وجبل الشرقية ثم مرتفعات هَـروج الأسود من الشمال الشرقي ، وهذه المرتفعات تحدد نهاية الهضبة الليبية وبداية مرتفع الصحراء ، أي أن الانسان بعد ان يعبرهـــا يُخلّف وراءه منطقة البحر الأبيض المتوسط ويدخل في المنطقة الصحراوية بكل خصائصها الجغرافية والمناخية ، أي ينتقـل من مزاج التلول الى مزاج الصحراء على حد تعبير ابن خلدون .

وفزان منخفض واسع من سلسلة منخفضات الصحراء الليبية وامتدادها غرباً، وتبدأ هذه السلسلة بمنخفض الواحات الخارجة والداخلة في الصحراء المصرية ثم تستمر السلسلة حتى المحيط الأطلسي فتتوالى منخفضاتهـــا على مراحل متباعدة . وفي معظم هذه المنخفضات نجد الماء في قيعان الأودية أو يظهر بعـــد حفر قليل ، ووجود الماء في هذه المواضـــع هو نتيجة لانخفاض سطحها عن عامة الهضبة ومرتفعاتها من حولها .

وفيما يتصل بمنخفض فزان نقول انـه يشمل كل ولاية فزان الشاسعة، وهو يتكون من حوض تشقـه وديان طولية تتجه في الغالب من الجنوب الغربـي الى الشمال الشرقي ، وتحده من الجنوب جبال تَمّو وتسيلي ، ويحده من الجنوب الغربـي خط تقسيم المياه بين رملة مرزوق في ليبيا وهضبـــة مُداما ــ جادو في جمهورية النيجر ، أما في الغرب فيحـده خط تقسيم المياه بين منخفض فزان ومنخفض جانه في الجزائر .

وتقوم الحياة في فزان في الواحات ، وكلها قائمة في الوديان الـــتي اشرنا اليها ، وهذه الوديان هي من الشمال الى الجنوب : وادي الشاطىء

ووادي لجّال ووادي الحُفرة ووادي الحكمة ووادي تنزوفت .

وأهم هـذه الوديان جميعاً واغناها بالماء والمدن والحيـاة هو وادي الشاطيء ، وهو يمتد بين الحمادة الحمراء في الشمال ورملة الزلاّف في الجنوب، ومن هذه المرتفعات تجتمع مياه المطر في الوادي المنخفض الذي يبلغ طوله نحو ٢٠٠ كيلومتر ويتراوح عرضه بين ١٠ و ١٢ كيلومتراً . وحافات هذا الوادي قريبة من القائمة في كثير من الأحيان ، فيبدو وكأنه خانق عميق يجري في قاعه مجرى يصل اتساعه احياناً الى كيلومتر . وفي بطن هذا المجرى يجري الماء احياناً، ولكن مورد الماء الحقيقي هناك هي العيون التي تحمل الماء قريب السطح واهمها عِدرى وتِمْسان ومهروجة وغيرة وبفضل هذه العيون قامت مدن فزان الهامة مثل براك والشاب والشّدة .

ويوازي وادي الشاطيء تقريباً وادي رملـة الزلاّف وهو على نحو كيلومترين الى الجنوب ، وهو اقل امتداداً واتساعاً منه .

أما أهم وديان فزان فهو وادي الّلجال وهو يشمل كـل المنخفض الواقع جنوب رملة الزلاف ، وهو يبـدأ في الشرق عند واحة العُبارى حيث يبلغ اتساعه اقصاه ، ثم يضيق شيئاً فشيئاً كلما اتجـه غرباً حتى لا يزيد اتساعه على كيلومترين في طرفه الغربي . ويمتد هذا الوادي امتداداً شاسعاً فيبلغ طوله ٤٨٤ كيلومتراً ، منها ١٩٣,٥ كيلومـتراً تقوم فيها الواحات . ويحد هذا الوادي من الشمال الحافة الجنوبية لرملة الزلاف، ومن الجنوب الحافة الشمالية لحمادة مرزوق .

وينحدر وادي لجال انحداراً مستمراً في امتداده من الغرب الى الشرق، وأعلى جهاته هي الشرقية المسماة بالوادي الشرقي ، ويضم هـذا الوادي واحات الجريد وتَمَنْهِنت وتِمْنُو وزِغْنو، وتغطي ارضه في بعض الاحيان حشائش تشبه ما يوجد في منطقة الحشائش العالية في السودان .

أما جزؤه الغربي المسمى بالوادي الغربي فيخترقه نهير يسمى وادي

منكوسة ينصب اليه من جبال مرزوق وتنمو في بطنه حشائش صالحة للرعي .

وفي وادي لجال تقوم اكبر واحات فزان وهي سَبْهة (اكبر مدن فزان وعاصمة ولايتها) .

أما وادي الحفرة فهو اكبر وديان فزان حجماً وأقصاها جنوباً ، وهو في الماضي كان الجزء الرئيسي من فزان ، وفيه تقع أهم مدنها الى اواخر القرن الماضي وهي مرزوق. وعلى مقربة منها تقوم واحات طَراغِن وأم الأرانب وتِميسَة وفيه يجري وادي عقبة ووادي برجوج . ويحد وادي اللجال من الشمال سرير الغطُّوس ، ومن الجنوب رملة المرزوق وفي أقصى طرفه الغربي تقوم واحة ام الحمام ، ويسمى الجزء الشرقي من وادي الحفرة بالشرقية ، وأهم واحات الشرقية زَويلة وأم الأرانب و وَاو الكبير.

أما الواديان الباقيان من وديان فزان وهما وادي الحكمة ووادي تنزوفت فأقل أهمية من الثلاثة الأولى ، والأول من هذين الواديين يشمل منطقة اقليم القطرون وأرضه صخرية قليلة الرمال من الطراز المسمى بالسرير ، وأما الثاني، وهو وادي تنزوفت فمعظم أهله من الطوارق وواحاته الرئيسية هي غات وتونين وفواريات وبَرْقِبْط وسَرديس .

والجو في المنطقة كلها قارّي صرف ، دافىء في النهار ، بارد في الليل ، شتاء . وحار في النهار ومعتدل في الليل ، صيفاً . احسن المواسم للحياة هناك هو الشتاء ، حيث يزداد دفء الجو في الوديان في النهار ، وتقل البرودة في الليل . وينخفض الفرق بين النهايات الصغرى والكبرى، ويظهر هذا بشكل واضح في الواحات حيث تكثر احراش النخيل وتنمو أنواع من الأشجار تحتمل الجفاف ، ويسقط المطر وبلاً حياناً ورذاذاً حيناً ولا يخلو موسم من مَطْرة غزيرة او اكثر فتنبت الحشائش الخضراء

للمرعى . ويكفي ماء المطر لزراعـــة الحبوب في معظم السنين ، ولكن هذه الزراعة محدودة المساحات والمحصول ، وفي بعض الواحات الأخرى يمكن ريّ الأرض وزراعة مساحات كبيرة بالحبوب والخضر . وهذه الى جانب التمر ولحوم الضأن والماعز والجمال هي قوام الحياة في تلك المنطقة الواسعة .

ومن هذا العرض العام يتبين ان فزان في مجموعها اقليم قليل الموارد، غير قادر على حمل الكثير من السكان ، فان مصادر الأرزاق فيه قليلة وتتطلب مع ذلك جهداً كبيراً في استغلالها ، واذا استثنينـــا التمر فإن الحاصل منها بعد ذلك لا يسد الا ضروريات الحياة . ولقد كان لهذا اثره في اخلاق الفزانيين على مر التاريخ ، فهم قوم عرفوا بصلابة البنيان ، ومتانة الخلق والصبر على متاعب الحياة مع نظر للمستقبل وتدبير لشؤون المعاش وعناية بالمسافر والضيف وعابر السبيـــل ، وهم كذلك اهل ايمان وتقشف وتمسك بالموروث من العادات والتقاليد .

فزان : جسر على بحر الرمال

ولكن الموقع الجغرافي لفزان عوضها الكثير عما فاتهـــا من قلة الموارد والأرزاق ، فهي مَعْبر عظيم بين شرق القارة الافريقية وغربها ، وهي بامتدادها العرضي الواسع تحمل المسافرين جزءاً كبيراً من الطريق ، فاذا فرغوا منها ووصلوا الى احدى القرى الواقعة في طرفها الغربي مثل غات او سرديس فقـــد قطعوا نصف الطريق في سيرهم الى غربي القارة ، وأفضوا بعد ذلك الى مناطق الجريـــد الواسعة جنوبي المغرب الأوسط — القطر الجزائري حالياً — وهي مناطق كثيرة العيون والواحات وأماكن النزول والراحة والزاد .

ولكن اهمية فزان كجسر بين شمال القارة وقلبها تزيد على اهميتهـــا

كمعبر على الطريق مـــن الشرق الى الغرب وبالعكس ، لأن فزان تقوم في الموضع الذي تبلغ فيه الصحراء الكبرى اقـــل اتساعها من الشمال الى الجنوب ، واذا نحن استثنينا طريق النيل والطريق الساحلي الممتد من جنوب المغرب الأقصى الى حوض السنغال لم نجد معبراً آخر للصحراء الا في فزان، لأن القوافل تنحدر من طرابلس الى ودان وفزان في طريق عامر كثير الآبار ، وبعد ان تقطع فزان في طريق معروف عامر بالسابلة وتصل الى تمّو على طرفها الجنوبـي تدخل في اقليم كوّار ، وهي اقليم آبار وموارد ماء تصل بالمسافرين الى منطقة بحيرة تشاد التي تعرف بالسودان التشادي، وهو المساحة الواسعة من السودان العام الذي يُقسَّم عرضاً الى السودان النيـــلي ثم السودان التشادي ثم السودان الغربـي ويقطع القارة من شرق لغرب على هذه الصورة في منطقة السهوب المدارية .

ومن هنا كانت لفزان اهمية عظمى من هذه الناحيـــة طوال العصور الوسطى بل الى اواخر القرن المـاضي . وفي منتصف القرن الماضي عندما نشط الأوروبيون لاقتحام القارة عبر الصحراء الكبرى وتوافـــد رحالتهم على افريقية من امثال رينيه كايَيه وبارْت وناختيجال لم يجدوا سبيـــلاً لاختراق القارة من الشمال الى الجنوب الا عن طراق فزان . ولقد حاول اولهم وهو رينيه كاييه ان يصل الى تُمْبُـكتو عن طريق المغرب الأقصى فلم يفلح ، فجرب ان يقطع الصحراء من ناحية الجزائر فتبـين ان ذلك مستحيل ، فاضطر للذهاب الى القاهرة ومنها الى قفط ثم طريق الواحات وواصل السير حتى وصل الى مرزوق ، ومن هناك استطـاع العبور الى السودان الأوسط فالغربـي .

وهذا الموقع الجغرافي وأهميته كمعبر للصحراء من الشرق للغرب ومن الشمال الى الجنوب هو الذي يعنينا في هذا البحث ، فقد وصل الاسلام الى مناطق السودان عن طريق حوض النيل الأعلى آتياً من شرق القارة حيناً ومن شمالها الشرقي حيناً آخر ، ولكـن فزان كانت الطريق المفتوح

للاسلام والحضارة العربية بصورة دائمة ، وعن هذا السبيل كان لفزان دور عظيم في التكوين الديني والحضاري لجزء كبير من القارة الافريقية كما سنراه .

فتوح فزان وكوّار

دخل الاسلام فزان من زمن مبكر جداً ، فكان الذي حمله اليها اول الأمر عقبة بن نافع الفهري في سنتي ٢٢ و ٢٣ هـ / ٦٤٢ – ٦٤٣ م. بعد استيلاء عمرو بن العاص على برقة مباشرة . فقد ارسل عقبة من برقة مباشرة في بعث فتَح زويلة اقرب مدن فزان الى برقة ، وكانت اذ ذاك منفصلة عنها لا تعد منها . وبعد ذلك بقليل ، وبعد ان فتح عمرو ابن العاص طرابلس في نفس العام تقريباً ، أرسل قائداً من قواده هو يُسْرُ بن أرْطَأة ففتح ودّان . وفي سنة ٦٦١/٤١ اخضع عقبة قبائل غدامس التي كانت ضاربة فيما بين برقة وطرابلس ، ثم احتل غدامس سنة ٦٦٢/٤٢ واتجه الى الجنوب ففتح بعض واحات الصحراء . ومن ذلك الحين الى سنة ٦٧٠/٥٠ ظل عقبة مقيماً في هذه النواحي الصحراوية يستكمل فتحها ويُدخل اهلها في الاسلام ويعلمهم قواعده ويكسب ولاءهم ، ولم يكن هذا بعسير على عقبة ، فقد كان بطبعه رجلاً زاهداً متقشفاً عظيم الايمان تتوق نفسه الى الجهاد في سبيل الله ، وكان مزاجه بدوياً خالصاً لا يألف المدن ولا يميل الى الواحات ولا يطلب من الدنيا شيئاً ، وكان باسلاً مقداماً طلْق اليد لا يبقي على مال ، وهذه كلها خصال تعجب البدو وتفتنهم ، فلم يلبث عقبة ان اصبح بطلاً في أعين اهل وادن وفزان وغدامس وما اليها من الواحات ، ودخل اولئك الناس الاسلام على يد عقبة وعلى طريقته ، فكان اسلامهم من ذلك الوقت المبكر اسلاماً سليماً ، وظل على هذه الصورة بعد ذلك .

وفي سنة ٤٦/٦٦٦ قام عمرو بحملة كبرى وصلت بالاسلام الى اقليم كوّار في الجنوب وغرست جذوره فيها ، وقد اتانا ابن عبد الحكم بقصة هذه الحملة الكبيرة في تفصيل تشوبه لمحات من قصص لا يعسر علينا استبعادها والاحتفاظ بصلب الوقائع التاريخية ، ونورد نصها هنا فهي عظيمة الأهمية لنا ، قال :

« ثم خرج الى المغرب بعد معاوية بن حديج عقبة بن نافع الفهري سنة ٤٦ ومعه بُسر بن أبي أرطأة وشريك بن سُمّى المرادي ، فأقبل حتى نزل بمَغْمَداش من سُرت ، وكان قد توجه بسر اليها — كما حدثنا يحي بن عبد الله بن بكير عن الليث بن سعد سنة ٢٦ — من سُرت ، فأدركه الشتاء وكان مضعفاً . وبلغه ان اهل ودان قد نقضوا عهدهم ، ومنعوا ما كان بُسر بن ابي أرطأة فرض عليهم . وكان عمرو بن العاص قد بعث اليها بسراً قبل ذلك وهو محاصر لأهل طرابلس فافتتحها » .

« فخلف عقبة بن نافع جيشه هناك ، واستخلف عليهم عمر بن علي القرشي وزهير بن قيس البلوي ، ثم سار بنفسه وبمن خف معه : اربعماية فارس واربعماية بعير وثماني مائة قِربة حتى قدم ودّان فافتتحها ، وأخذ ملكهم فجدع اذنه ، فقال : لمَ فعلت هذا بي وقد عاهدتني ؟ فقال عقبة : فعلت هذا بك أدباً لك ، اذا مسست اذنك ذكرته فلم تحارب العرب ، واستخرج منهم ما كان بسر فرضه عليهم : ثلثمائة رأس وستين رأساً » .

ثم سألهم : هل من ورائكم احد ؟ فقيل له جَرَمة ، وهي مدينة فزان العظمى ، فسار اليها ثماني ليال من ودان ، فلما دنا منها ارسل فدعاهم الى الاسلام فأجابوا . فنزل منها على ستة اميال ، وخرج ملكهم يريد عقبة ، وأرسل عقبة خيلاً فحالت بين ملكهم وموكبه ، فأمشوه

راجلاً ، حتى أتى عقبة وقد تعب ، وكان ناعماً ، فجعل يبصق الدم، فقال له : لمَ فعلت هذا بي وقد أتيتك طائعاً ؟ فقال عقبة : أدباً لك، اذا ذكرته لم تحارب العرب ، وفرض عليه ثلثمائة عبد وستين عبداً ، ووجه عقبة الرحل من يومه ذلك الى المشرق » .

« ثم مضى على عهده الى قصور فزان فافتتحها قصراً قصراً حتى انتهى الى اقصاها فسألهم : هل من ورائكم احد ؟ قالوا نعم ، اهل خاوار ، وهو قصر عظيم على رأس المفازة في وعورة على ظهر جبل ، وهو قصبة كوّار ، فسار اليهم خمس عشرة ليلة ، فلما انتهى تحصنوا فحاصرهم شهراً ، فلم يستطع لهم شيئاً ، فمضى امامه على قصور كوار فافتتحها حتى انتهى الى اقصاها وفيه ملكها ، فقطع اصبعه ، فقال : لمَ فعلت بي هذا ؟ قال ادباً لك ، اذا انت نظرت الى اصبعك لم تحارب العرب ، وفرض عليه ثلثماية عبد وستين عبداً » .

« فسألهم : هل من وراثكم احد ؟ فقال الدليل : ليس عندي بذلك معرفة ولا دلالة ، فانصرف عقبة راجعاً فمر بقصر خاوار ، فلم يعرض له ولم ينزل بهم ، وسار ثلاثة ايام ، فأمنوا وفتحوا مدينتهم ، وأقام عقبة بمكان اسمه اليوم قرس ، ولم يكن به ماء ، فأصابهم عطش شديد اشفى منه عقبة واصحابه على الموت ، فصلى عقبة ركعتين ودعا الله ، وجعل فرس عقبة يبحث بيديه في الأرض حتى كشف عن صفاة فانفجر منها الماء ، فجعل الفرس يمص ذلك الماء ، فأبصره عقبة فنادى بالناس أنْ احتفروا ، فحفروا سبعين حسيّاً فشربوا واستقوا ، فسمي ذلك ماء فرس » .

« ثم رجع عقبة الى خاوار من غير طريقه التي كان اقبل منها ، فلم يشعروا به حتى طرقهم ليلاً ، فوجدهم مطمئنين قد تمهدوا في اسرابهم، فاستباح ما في المدينة من ذرياتهم وأموالهم وقتل مقاتلتهم . ثم انصرف

راجعاً فسار حتى نزل بموضع زويلة اليوم ، ثم ارتحل حتى قدم على عسكره بعد خمسة اشهر ، وقد جمت خيولهم وظهرهم فسار متوجهاً الى المغرب ، وجانب الطريق الأعظم ، وأخذ الى ارض مزاتة فافتتح كل قعر بها ثم مضى الى قفصة [1] فافتتحها ، وافتتح قسطيلية ، ثم انصرف الى القيروان [2] » .

وقد اتيت بنص هذه الفقرة على طولها لأنها حافلة بالعبارات والملاحظات التي تصور لنا الجهد الذي بذله المسلمون الأول في فتح ودان وفزان وكوّار ، وهو جهد ساعد الله عقبة ليقوم به ، فما كان احد يستطيع القيام به غير مجاهد متقشف عميق الايمان كهذا الرجل ، وقد كان لهذا الجهد اثره الباقي في هذه الناحية فأصبحت من ذلك الحين مركزاً للاسلام الصادق الصافي . والطريف في الأمر ان عقبة اتم عمله ففتح اقليم كوار ايضاً ، وسنرى بعد قليل ان هذا الاقليم يكمل الطريق الى السودان التشادي اي الى قلب افريقية ، فكأن عقبة كان يدرك بالاحساس الفطري السليم الذي ميّز الكثيرين من رجال الفتوح الاسلامية الأولى بأنه يفتح للاسلام بهذا العمل طريقاً واسعاً الى دنيا شاسعة . ولا نستغرب لهذا ان تظل اقاليم ودان وفزان وكوار مراكز للحركات الصوفية ودعوات الجهاد،

---

١ مكان هذا اللفظ بياض في الاصل المطبوع ، وقد استكملته من البكري، صفة افريقية ، بتحقيق دي سلان ، الجزائر ١٨٥٧ ٠

٢ ابن عبد الحكم ، فتوح مصر والمغرب والاندلس ، بتحقيق تشارلس س٠ توري ، نيو هيفن ، مطبعة جامعة ييل ، سنة ١٩٢٢ ، ص٠ ١٩٤ـ١٩٥ وكذلك طبعة البير جاتو ، الجزائر ١٩٤٧ (مع ترجمة فرنسية وتعليقات قيمة) ، ص ٦٢ ـ ٦٤ ، وقد نقل البكري هذه الفقرة كلها بنصها ، انظر الجزء الخاص بالمغرب من المسالك والممالك ، بتحقيق البارون دي سلان بعنوان المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب ـ الجزائر ١٨٥٧ ، ص٠ ١٢ ـ ١٣ ، وانظر كتابنا «فتح العرب للمغرب» (القاهرة ١٩٤٧) ص٠ ٦٤ ـ ٦٥ ، ٦٩ ـ ٧٠ و ١٣٥ ـ ١٣٧ ٠

ولا زالت ودان الى الآن بلداً مقـدساً في اقليم الجفرة فقد كانت ولا زالت مركزاً من مراكز القوة السنوسية .

اقليم كوّار ، دهليز يؤدي الى قلب افريقية

وما دمنا قد وصفنا فزان وبيّنا مكانها واهميتها كمعبر عظيم القيمة على الطريق من شرقي القارة الى غربها خلال الصحراء الكبرى وكجسر بين شمالها وجنوبها ، فلنقل كلمتين عن بقية هذا الجسر الذي يؤدي بالمسافر فعلاً الى السودان التشادي ونقصد بذلك اقليم كوّار الذي رأينا اجتهاد عقبة بن نافع في فتحه واصراره على تمهيد امره للاسلام .

هذا الاقليم يقع الى غربي جبال تِبستي ويقوم بأسره في جمهورية النيجر السودانية (لا نيجيريا) .

هـذا الاقليم طريف من النواحي الجغرافية والبشرية والاقتصادية والحضارية . فأما من الناحية الجغرافية فان كوّار أشبه بمنخفض طولي بين جبال تبستي في شرقه وهضبة جادو في غربه ، أما هضبة جادو فطرفها الشمالي يقع في ليبيا الى جنوبي فزان ، وبقيتها تقع في جمهورية النيجر، وهضبة جادو مثال للحمّادات أي الصحارى الصخرية التي وصفها الاستاذ احمد توفيق المدني في كتابه عن جغرافية الجزائر (ص ٥٢) بعبارة لطيفة : « وهي عبارة عن صخور صلدة محترقة يتبع بعضها بعضاً على مسافات شاسعة جداً ، هي بلاد الموت والغم والكمد ، لا توجد فيها ولا تكاد ترى فيها نباتاً او حيواناً . »

حمّادة من هذا النوع تفصل بين فزان وكوّار فيما عدا وادياً ضيقاً هو امتداد لوديان فزان الى الجنوب يسير بين سفوح التبستي والحافة الشرقية لهذه الحمادة . هذا الوادي ينفسح احياناً وتنبجس المياه من عيون في قاعه على مراحل لا يزيد بُعد الواحدة منها عن الاخرى مسيرة يوم للقوافل ،

فكأنه على هذا شارع انشأته الطبيعة خلال مَوات الحمّادة ليكمل الطريق من فزان الى اقليم بحيرة التشاد وما يليه جنوباً وجنوباً بغرب من بلاد افريقية الاستوائية .

اقليم كوّار نفسه استمرار هذا الشارع . انه شريط من الواحات يمتد من الشمال الى الجنوب يبدأ بواحة تُمّو جنوبي مرزوق في ليبيا وينتهي عند واحة بلما في قرب جمهورية النيجر ، وقد اصاب جورج إيفير (George Yver)عندما وصف الاقليم بأنه دهليز واحات(un couloir d'oasis) وهذا الدهليز نفسه هو طريق التجارة ، وهو الخيط الدقيق الذي يكمل طريق فزان ويصل بالقوافل من مرزوق الى حوض النيجر ، وهذا هو الطريق الذي سلكه الاسلام في الوصول الى هذه النواحي من الشمال ، فهو على هذا ممر نور مبارك ، عن طريقه انتقل دين ولغة وحضارة من عالم الى عالم ، وهو ايضاً طريق الرحالة الاوروبيين في العصر الحديث ابتداء من رينيه كاييه الى ان احتل الفرنسيون هذه البلاد عندما احتلوا تشاد في يوليو ١٩٠٦ وانشأوا الطرق العسكرية الحديثة التي غيرت معالم التكوين السياسي والاقتصادي لقلب القارة الافريقية خلال نصف القرن الأخير .

وأما أهمية اقليم كوّار من الناحية البشرية فان اصل السكان هناك افارقة سود من التُبو والكَنوري والفوليا أو عرب ، وسنتحدث عن الكنوري والتويو ودورهم العظيم في نشر الاسلام في افريقية في فقرة تالية، أما الفوليا فمن سودان العرب الافريقي وهم شعب عفيّ اعتنق الاسلام وعمل على نشره في السودان الغربي ، ومن ثم فليس هنا مكان الكلام عنهم . ولكن يهمنا هنا عرب كوّار والغالبية العظمى منهم ينسبون انفسهم الى العرب الأول الذين دخلوا مع عقبة بن نافع ، وقد رأينا كيف ان عقبة فتح فزان وكوّار وما قرب منهما من نواحي الصحراء وظل ينتقل بين بلادها سنوات طويلة ، ومن هنا فمن المحتمل جداً ان

تكون دعوى هذا الفريق من عرب كوّار صحيحة ، وهذا يفسر لنا كيف استمر اقليم كوّار يؤدي رسالته الدينية والحضارية عبر القرون ، فقد كان اولئك العرب او المستعربون القدماء يعملون باستمرار على نقل الاسلام والحضارة العربية من فزان الى السودان، فقد كانوا مسلمين عرباً يخدمون الاسلام والعروبة . وهذا بدوره يوضح لنا معنى قولنا ان فزان وكوار كانتا جسراً ضخماً انتقل الاسلام والعروبة عن طريقه الى قلب القارة . وكوار بلد صغير ضيق تحدث الرحالة جميعاً عن قلة موارده وفقر اهله ، ولكنهم تحدثوا جميعاً ايضاً عن اسلام اهله وايمانهم ، هذا الاسلام الذي دخل الى هذه النواحي في نفس الوقت الذي دخل فيه الاسلام فزان . وفي مطلع القرن الحديث هاجرت الى كوار جماعات من عرب اولاد سليمان فانضاف دم عربي جديد الى سكان كوار ، وفي اوائل هذا القرن وصل دعاة السنوسية الى كوار وانشأوا زاوية في بلما اكبر قرى كوار ومركزها الاقتصادي . وهذا كله تجديد مستمر للدم العربي في كوار الى عصرنا هذا .

ونتحدث الآن عن التويو من عناصر سكان كوار . هؤلاء في الأصل شعب مستقل بنفسه يسكن منطقة فقيرة الى غربي كوار وتمتد الى مرتفعات الهُقار التي تسمى عادة بأهُجّار .

وينتشر التويو في فزان ايضاً ، ومنهم يتكون معظم سكان القَطرون ، ويمتدون كذلك في جبال التِّبْستي وما يجاورها من نواحي برقع (Borkü) وبدالة (Bodelé) حتى شمال واداي ، وهناك جماعات منهم في بحر الغزال وفي بلاد الكانم وواحات كوار .

وسر انتشار التويو على هذه الصورة الواسعة ان بلادهم فقيرة جداً ، ثم انهم قوم مجتهدون مقبلون على العمل والرحلة ، تعينهم على ذلك صغر اجسامهم واحتمالهم الكبير للمتاعب .

والاسم الحقيقي للتويو هو التِّيدا ، وبهذا الاسم يسمون انفسهم ، أما التويو والتيبو فأسماء اطلقها عليهم الأوروبيون ، وهم يسمون في بحر الغزال بالكِتْشِرْوا ويسمون في واداي بأسماء شتى منها أمّا – بورْكْوا وكِريدا نوريا وغرفادة .

وهم ليسوا بيضاً صرحاء او سوداً خالصين ، وانما هم شعب هجين يغلب على الظن انهم من اصل بربري ، ولكنهم مسلمون من زمن طويل، وهم حيثما ذهبوا يحملون اسلامهم معهم ويجتذبون الناس اليه ، وفي كوار يعملون ادلاء للقوافل وخدماء للتجار ، ويرافقون هـذه القوافل مسافات بعيدة بعد ان تخرج من كوار ، لأنهم شعب عفي نشيط يرأسه سلطان ينظم شؤونه مع نفر من الأشراف والمحاربين تسمى طبقتهم بالمايْنا ، ومن اشهر عائلاتهم التَّوزابا والجوندا والطَّرْماغيرة وكلها عائلات مسلمة تقيم في جبال تبستي .

اما الشعب فكتلته الرئيسية مفرقة في شعاب تبستي ، وقد عُرفوا منذ الزمن البعيد بالإسلام العميق والاقبال على المشايخ والصالحين ، ومن ثم فقد كانوا دائماً دعاة اسلام ، وفي يومنا هذا ينضم معظمهم لطريقـة السنوسية ولهم في بلادهم زوايا كثيرة اشهرها زاوية واو وزاوية عين جلاّفة .

ومن الواضح ان التويو زادوا بنشاطهم وايمانهم اهمية كوار كجسر لنقل الاسلام وثقافته ، فانهم ملح هذا الاقلـيم وعنصره النشيط ، وهم خميرة صالحة نجدهم منتشرين في كل نواحي السودان النيلي والتشادي .

والآن وقد وقد وصفنا فزان وكوار وتكلمنا عن العناصر التي تسكنها وبيّنا اهميتها كطريق اسلامي ثقافي ، ننظر الآن في اثرهما في نشر الاسلام فيما يليهما من بلاد افريقية جنوباً .

ونبدأ الكلام هنا عن منطقة كانم وشعبها ومملكتها ، فقد كانت من

كبار ممالك الاسلام في السودان التشادي ، وكان اهلها ركناً عظيماً من اركان الاسلام في قلب افريقية ، وكان لهم فضل عظيم في ايصال الاسلام الى شعوب كثيرة جنوبهم وجنوبهم الغربي .

فزان واسلام الكانم

قامت مملكـــة الكانم شرقي بحيرة تشاد وامتدت في الشرق حتى بحر الغزال . وقد ذهبت الآن دولة الكانم كوحدة سياسية ودخل الجانب الأكبر من بلادها في جمهورية التشاد ، ودخلت البقية في جمهوريـــة السودان ولكن اهلها باقون كوحدة بشرية عاصمتها أبْشِيو وهي واحة ضخمة الى جنوب جبال تبستي وتلالها ، وهي واقعة في منخفض يمكن اعتباره من امتدادات منخفض فزان الواسع ، ودليل الصلة الجغرافية بين بلاد الكانم وبلاد فزان ان منخفضي القطرون او الجطرون ، وهو اليوم جزء اساسي من فزان والمملكة الليبية ، كان في الماضي جزءاً من بلاد الكانم ، وقد كانت ناحية القطرون فيما خلا من العصور بحيرة نشأت من تسرب مياه بعض فروع بحر الغزال واستقرارها في المنخفض ، ثم جفت فيما بعد ، مثلها في ذلك مثل بحيرة تشاد التي تجف الآن شيئاً فشيئـــاً وتتحول الى ارخبيلات صغيرة من الجزر تفصل بين اجزائها المستنقعات ولا يتصل الماء ويعمق فيها الا في الوسط .

وسكان الكانم كانوا خليطاً من اهل كانم الاصليين وهم الكانمبو ، وهم شعب سوداني افريقي اصيل ، ومن جماعات الطَّنجورية وهم عرب في الأصل ترجع اصولهم الى بني هـــلال ، ولكنهم اصبحو االفارقـــة سودانيين مع الزمن ، وقد هاجروا بعد القرن العاشر الميلادي من تونس الى طرابلس ثم الى فزان ، ومن هناك تفرقوا فتوجه بعضهم الى واداي وبعضهم الى كانم ، وتفرق الآخرون اوزاعاً في بـــلاد التويو والبُرْتو

الذين سنتكلم عنهم بعد قليل .

ولكن العنصر الاظهر في التكوين البشري لمملكة الكانم هم العرب وهم نفس اولاد سليمان والشُّوا الذين سنراهم في واداي ، والشوا تحريف للفظ الشاوية وهم رعاة الشِّياه الذين يتحدث عنهم ابن خلدون عندما يجيء ذكر اقليمهم الاساسي غربي بجايه على ساحل الجمهورية الجزائرية، والرعاة الشاوية أو الشُّوا في العادة اضعف اقتصادياً واجتماعياً من البقّارة او البجّارة وهم رعاة البقر .

والطريف في امر الشوا او الشاوية الذين نجدهم في واداي والكانم والبُرنو وما اليها ان اصولهم البعيدة ترجع الى جنوبي تونس ، وان معظمهم تيجانية الطريقة ، مما يؤكد انهم من سلائل شاوية المغرب الذين تحدث عنهم ابن خلدون، ومن المعروف ان الطرق الصوفية تُكسب هذه الجماعات الاسلامية العاملة خارج نطاق الاسلام شخصية وقوة معنوية وتبعث فيهم ايماناً يوحد بين قلوبهم ويقدم لهم تنظيماً سياسياً واجتماعياً هم في اشد الحاجة اليه ، ويبعث فيهم شيئاً من نظام الجندية وقوتها الدافعة ، وللطرق التيجانية والقادرية والسنوسية اليد الطولى في نشر الاسلام في قلب افريقية وشرقها ، كما ان للمرابطين الفضل الاكبر في نشر الاسلام في غرب افريقية . والمرابطون قبل ان يتحولوا الى دولة كانوا جماعة صوفية محاربة ، ولولا ان عبد الله بن ياسين – صاحب الفضل الاكبر في قيام دعوة المرابطين – كان صاحب فتوح ونزوع سياسي لكانت الدعوة المرابطية قد اصبحت طريقة صوفية تعمل عملها الهادىء النشيط في نشر الاسلام كما فعلت التيجانية والقادرية والسنوسية ، ولا شك ان هذه الاخيرة هي النموذج الاكبر لحركة صوفية مناضلة نشيطة كان لها اثر بعيد جداً في سير الاسلام في افريقية .

وصل الاسلام الى بلاد الكانم من زمن بعيد ، فقد حملته اليها قوافل التجار والسفار والمرابطة عن طريق جسر فزان وكوار، ولكن قيام مملكة

كانم الاسلامية فيها يرجع الى هجرة جماعة من زغاوة اصحاب السيادة في دارفور و واداي قبل قيام دولة الفور . هاجرت هذه الجماعة الزغاوية من دارفور الى كوار ومنها دخلت الكانم وانشأت فيها دولة صغيرة ، ثم اقبل بعد ذلك عرب الطنجور الهلالية عن طريق دارفور و واداي فاشتد بهم ساعد الدولة في القرن السابع عشر .

فزان وشعب زغاوة

واخبار زغاوة هؤلاء كثيرة وغامضة ، فنحن نجد ذكرهم في كل ما يتصل بانتشار الاسلام وقيام دُوله في السودان النيلي والسودان التشادي دون ان نعرف شيئاً محققاً عنهم . فابن خلدون يعطينا شيئاً من المعلومات عنهم في فقرة طويلة نقلها عن ابن سعيد واوردها في فصل تاريخه المسمى « الخبر عن ملوك السودان المجاورين للمغرب من وراء هؤلاء الملثمين ووصف احوالهم وما اتصل بنا من دولتهم » (٦/١٩٨ وما يليها) وهو فصل ممتع جدير بأن يكون وحده موضوع دراسة مطولة . أما فقرة ابن سعيد التي نشير اليها فلا شك انه نقلها عن كتاب ابي عبد الله بن فاطمة ذلك الرحالة المؤرخ الافريقي السوداني الذي لا نعرف عنه شيئاً رغم دَيْننا العظيم له عن طريق ابن سعيد وابن خلدون وغيرهما . وابن سعيد يُعدد في هذه الفقرة امم السودان التي تمتد مواطنها من ساحل افريقية الشرقي عند ما يعرف اليوم بالصومال الى وسط القارة عند بحيرة تشاد . وهذه الأمم على الترتيب هي : الزنج على ساحل المحيط الهندي وعاصمتهم مُمبسَّة ، فهم على هذا اهل كينيا وتانزانيا الحاليتين — البرابرة ويريد بهم اهل الصومال ومدينتهم اي عاصمتهم عنده مقدشو — امة دَمدَم الى جنوب وغرب البرابرة وهم في رأيه على الفطرة يعيشون حفاة عراة — الأحباش : بلاد دموت الى غربي الحبشة ، وكان عليهم ملك كبير

واسع السلطان — شعب سوداني كبير عاصمته أُوفات ، وكانوا مسلمين عليهم ملك يسمى حق الدين محمد بن علي بن اولْصَمع ، والى شمال هؤلاء يقيم البجّة او البجاوة وبــلادهم تمتد الى ساحل البحر الأحمر — النوبة اخوة الزنج والاحباش، وكانوا يقيمون فيما يلي النيل شرقاً ومدينتهم دُنقلة ، ويليهم الى الشرق « زغاوة وهم اهل دارفور وهم مسلمون ومن قبائلهم تاجِرة ، ويليهم الكانم ، وهم امة مسلمة ومدينتهم الكبرى تسمى جيمي ، وسلطانهم في الصحراء يمتد حــتى فزان ، وكانت لهم مهادنة مع الدولة الحفصية من اولها » . الى هنا ينتهي كلام ابن سعيد برواية ابن خلدون .

واذن فزغاوة — بناء على هذا القول — جنس من السودان او السود يسكنون شرقي السودان النيلي الى الشمال من بحر الغزال فيما يسمى بدارفور .

ولكن الاشارات التي لدينا تدل على خلاف ذلك وتميل بنا الى القول بأن زغاوة كانوا في الأصل فريقاً من بربر المغرب استعربوا واسلموا ثم هاجروا الى شرقي السودان حاملين اسلامهم معهم الى هناك ، ثم اصبحوا سودان بطول الاقامة في هذه النواحي ومخالطة امم السودان المجاورة لهم، ومن المعروف ان الدول الاسلامية في الكانم والبُرْنو وواداي وما اليها انشأها اولاً عرب مهاجرة او بربر مستعربة ثم خلفهــم على الملك اسر او دول سودانية او متسودنة كما يتجلى ذلك في تاريخ البرنو والتويو والواداي .

وعندما نحقق في الأمر نجد ان زغاوة هؤلاء كانوا في اصلهم البعيد فرعاً من قبيلة بربرية هامة يسميها ابن خلدون زُواغة ويعتمد في الكلام عليها على ابن حزم ، وزغاوة هؤلاء يكتبون احياناً زُواوَة واحيانــاً اخرى زوازة وربما زوارة . وكلها فيما نرى تحريفات من النساخ للاسم الأصلي وهو زغاوة او زواغة ، وهؤلاء كانوا فريقاً من البربر الصنهاجيين

يقيمون قريباً من منازل كتامة على ساحل البحر الابيض الى غربي مدينة بجاية ، ثم هاجرت زغاوة او زواغة ، الى بلاد الجريد جنوبي تونس ثم الى طرابلس ، ومن هناك اخذوا طريق فزان وكوار وأفضوا الى اقليم بحيرة تشاد ثم اتجهوا شرقاً فاستقروا في إقليم دارفور وأعطوا جزءاً كبيراً منه اسمهم . دخلوا هذه الناحية مسلمين حاملين جانباً كبيراً من الثقافة العربية الاسلامية ، فأنشأوا المساجد في بلادهم الجديدة وأصبحوا مركزاً من مراكز انتشار الاسلام وثقافته في السودانَيْن النيلي والتشادي .

وقد كان فريق من زغاوة او زواغة هؤلاء هم الذين هاجروا الى كانم وأنشأوا اول دولة اسلامية فيها في زمن يصعب تحديده ، ولكنه قبل القرن الرابع عشر الميلادي على اي حال .

والثابت ايضاً ان زغاوة كانت من اول استقرارها في ناحية دارفور قوةً عاملة نشيطة في نشر الاسلام في كل ما جاورها من البلاد ، فقد اتيح لها بعد ان استقرت في تلك الناحية ان تجمع بين الطريقين اللذين اتخذهما الاسلام في الوصول الى السودان التشادي : الطريق الآتي من مصر والطريق الآخر خلال فزان وكوار ، ومن ثم فقد كان لها اثر بعيد جداً في تقوية اكبر تيار فكري ثقافي دخل القارة في تاريخها الطويل : تيار الاسلام والحضارة الاسلامية .

فزان واسلام واداي

ولكي نوضح ذلك بمثل من واقع التاريخ نلقي نظرة على اقليم واداي وهو اقليم اسلامي فسيح كان يشمل الطرف الغربي من حوض بحر الغزال ونهيراته المتعددة ، ويمتد شمالاً بشرق فيقوم حاجزاً بين كردفان ودارفور في الشرق وبلاد الكانم في الغرب ، وتمتد واداي شمالاً حتى السفوح الجنوبية لجبال تبستي .

ويقع الآن جزء من واداي في جمهورية السودان في حين ان بقيتها تقع في جمهورية تشاد ، وهذه الاخيرة من الجمهوريات الاسلامية الافريقية التي لا يعرف عنها عرب اليوم الا القليل ، وهذا القليل الذي نعرفه عن احوال بلاد اسلامية جارة لنا وشريكة في الافريقية مظهر من مظاهر زهد العرب في كل علم يتطلب مشقة وصبراً .

وأهل واداي ككل الشعوب الافريقية الساكنة جنوبي الحزام الصحراوي خليط من امم شتى ، ولكنهم ينقسمون بصورة عامة الى ثلاثة اقسام : جماعات السود او السودان مثل البدّيّات والزُّغاوة والبْجيجا (وهؤلاء يتكلمون لغات سودانية قريبة من لغة النوبة) وجماعات الافريقيين وأهمها الكَنوريُّون والتِّيد ا(وهم المعروفون بالتوبو وقد ذكرناهم) ثم جماعات العرب ويمثلهم اولاد سليمان وعرب الشُّوا .

فأما اولاد سليمان فمن الثابت انهم دخلوا واداي في منتصف القرن الماضي عندما اخرجهم الاتراك العثمانيون من فزان ، وأما الشُّوا فبعضهم أتي من صعيد مصر وبعضهم الآخر من طرابلس او فزان ، وأهم قبائل الشّوا هناك السَّلامات وخُزام والجعادنة والمحاميد والدَّكاكير ، وهؤلاء دخلوا واداي من زمن مبكر، وكان اسلامهم اول الأمر سطحياً غير وثيق حتى دخل بلادهم في القرن السابع عشر رجل من الجُعَليّين يسمى صالح او جامع ، وكان فقيهاً مرابطاً فأصلح عقيدتهم وأثار حماسهم وجعلهم يبنون المساجد ويحرصون على شعائر الاسلام .

فاذا نظرنا الى المجموعة السودانية من سكان واداي وهم البدّيّات والزغاوة والبجيجا وجدنا اولاً انهم بدو ظواعن فيما عدا الزغاوة فان معظمهم اهل قرار وزرع ، اما بقيتهم فبدو ظواعن يعملون بالتجارة ويسيرون بالقوافل مع اخوانهم البديات والبجيجا ، وهم من سادة طريقي القوافل الرئيسيين : النيلي والفزاني . وقوافلهم تصل الى طرابلس تارة

والى أستنا في مصر تارة اخرى ، وقد سبق ان بيّنـــا كيف ان طريق القوافل هذه كانت ايضاً طريق الاسلام والحضارة .

ومعنى هذا اننا نجد هنا مثالاً آخر لأهمية الدور العظيم الذي قامت به فزان في تاريخ الاسلام في افريقيـــة ، فهي لم تكن طريق الهجرات البشرية للجماعات التي حملت الاسلام فحسب بل كانت طريقاً مفتوحـــاً امام حضارة الاسلام حتى اواخر القرن الماضي .

دولة البُرْنو وأثر فزان في اسلامها

وننتقل بعد ذلك الى اقليم البرنو أو برنو ، وكان الى منتصف القرن الماضي دولة اسلامية ذات نظام وسلطان وتاريخ . وكانت تنشر سلطانها على اقليم فسيح شرقي بحيرة تشاد ، بل مدت ساطانها في وقت ما على مملكة الكانم غربـي البحيرة . وقد بلغت هذه الدولة اوجها خلال القرن السادس عشر الميلادي، ولم ينته تاريخها كدولة مستقلة إلا في ٢٣ اغسطس ١٩٠٦ عندما احتل الفرنسيون البلاد وقُتل في الميدان فضل الله بن رباح آخر ملوك البرنو من نسل الأمين الكانمي المعروف بالشيخ لَمينو، وجدير بالذكر ان محمد الأمين الكانمي هذا اصله من فزان وهـــاجر الى البرنو وانشأ هناك اسرة حاكمة من اوائل القرن التاسع عشر .

وتقع مملكة البرنو جنوبـي كوّار ، وهي اول بلاد السودان الاوسط التي يفضي اليها المسافر من الشمال الى الجنوب عن طريـــق ممر واحات كوار ، وهي تقع الى غربـي بحيرة تشاد ، وتحدها من الغرب بـــلاد الحوْصة او الهاوسا، ومن الجنوب ناحية ادَماوة ، ومن الجنوب الشرقي ناحية باجرمي ، وهي بلاد غنية يرويها نهران يصبان في بحيرة تشاد ، وتدل الدلائل كلها على ان الذين انشأوا البرنو كانوا رجال قبائل مغربية ضاربة في طرابلس ثم انتقلت الى فزان ومنها الى البرنو ، فان الطبقـــة

الحاكمة في مملكة البرنو كانت دائماً من مستعربة البربر وان كانوا ينسبون انفسهم الى اصول عربية صريحة كالاسرة السَّيفية التي تسمى بلغة البرنو بالسيفاوة ، فهم ينسبون انفسهم الى سيف بن ذي يزن الحميري، ثم ان الكثير من اسماء القبائل في طرابلس كان يبدأ بمقطع « بِر » مثل برداوة وبراوني وبراوين ، ولهـذا فانه يحتمل جداً ان اسم برنو كان اسم قبيلة مغربية طرابلسية هاجرت الى هذه الناحية وانشأت دولتها فيها . وعلى اي حال فان برداوة اسم اول الأسر التي تذكر كتب التاريخ انها حكمت برنو ، وهو اسم قبيلة بربرية كانت تنزل طرابلس ، ومن اهل برنو من يقول ان اصل اسم بلدهم بَرنُوح وهو تعليل مفتعـل ولكنه لا يخلو من دلالة .

وسكان البرنو يسمون بلغة اهلها البراوني ، وهم يتكونون من عناصر شتى اهمها اربعة هي الكَنوري والسودان والعرب والبربر والفوليا .

الكنوري : حملة النور

والكنوري اهم هذه العناصر البشرية في البرنو ، فهم يبلغون اليـوم ثلاثة ملايين من تسعة موزعين بين جمهورتي النيجر وتشاد، وهم يقولون ان اسمهم مكون من لفظ من اللغة المحلية هو « كا » ومعناه حامـل الشيء ولفظ عربي هو « النور » ، فمعنى اسمهـم اذن حامـل — او حاملوا — النور لأنهم حملة الاسلام الى اهل هذه النواحي من زمـن بعيد ، وهناك من يزعمون ان كانوري اصله كانِمري اي انه مشتق من اسم الكانم الذين غزوا بلاد البرنو واستقروا فيها في القرن الرابع عشر . وعلى أي حال فالكنوري ليس اسم امة ولا هو اسم قبيلة . وانمـا هو اسمٌ جُماعٌ يطلق على ناس من اصول شتى تجمعهم بعضهم الى بعض روابط الاسلام وطابعه الحضاري .

وقد اتى اوائل الكنوري الى بلاد البرنو من بـــلاد الكانم في القرن الرابع عشر، وكانوا يتكونون من قبائل تتخذ لنفسها انساباً عربية واخرى من الكانمبو والتوبو وانساباً اخرى غير هذه . فمن القبائل ذات الانساب العربية الباجومي وهم رجال قبيلة متفرقة في نواحي المونيو وزندر وكذلك قبيلة التِّنجالما ــ دكو ، ومن قبائل التوبو الكايو دازا وهم العنصر الغالب على سكان منطقة كويام ركذلك التجالما والتِّرا وقد اختلط الكنوري بأهل البلاد وتزاوجوا معهم فكثرت اعـــدادهم واصبحوا العنصر الاغلب بين السكان . وهم من الناحية الجسمانية عنصر طريـــف يجمع صفات من السودان واخرى من البربر أو العرب ، والوانهم تتراوح بين البني الداكن المحمر والرمادي الاسود الذي يسمى في نصوصنا بالأزرق ، وهم يمتازون بالاقبال على العمل والمهارة في الزراعة والنسيج ولا يقبلون عـــلى الخمر اقبال الكثير من أجناس هذه النواحي. وهم بشهادة كل الرحالة الذين زاروا بلاد البرنو وكتبوا عنها ، من اكثر السودان عملاً ونشاطاً ومن اعلاهم في المستوى الثقافي والفكري ، وكل هذه خصائص اتتهم مـــن الاصول العربية البربرية الاولى التي انحدرت اكثريتهم من اصلابها ، واذا استثنينا مسألة اللون الاسود وبعض الملامح الزنجية وجدنا ان الكنوري وسكـــان فزان وطرابلس شيء واحد ، فهم امتداد للمغرب الى جنوبي الصحراء عن طريق فزان ، وهذا هو الذي يهمنا في هذا الباب .

أما ما يلاحظ على مجتمع الكنوري من ملامح لا نعرفها في المجتمعات العربية البربرية مثل الحرية الواسعة للمرأة وسلطان نساء البيت المالك وخاصة أم الملك في شئون الدولة فمظهر من مظـــاهر البيئة الزنجية التي احتفظت بكثير من خصائص مجتمع الامومة ، وهو الغالب على المجتمعات الزنجية على اعتبار انها لا زالت في المراحل الاولى للتطور الاجتماعي . ومثل هذا يقال عن نسبة الاولاد الى امهاتهم بدلاً من نسبتهم الى الآباء ، وهـــذه ظاهرة يشتركون فيها مع بعض مجتمعات البربر الضاربة على حـــدود

الصحراء جنوبي المغرب الاقصى خاصة ، وقد ذهب بعض الباحثين الى ان وجود ظاهرة استقلال المرأة وظهورها في مجتمع الكنوري انما هو اثر من آثار اصلهم البربري ، وليس هذا ضرورياً ، لان التشابه في هذه الظاهرة مرجعه الى التشابه في المستوى الاجتماعي،وسيادة الامهات طور من اطوار التطور الاجتماعي لا مجرد ظاهرة حضارية .

اما العرب في اقليم البرنو فمعظمهم من الشوا او الشاوية ، وهـذه التسمية تطلق في الغالب على المستقرين منهم ، اما الذين يقومون بالرحلة والظعن فيسمون بالوصيلي او الاواصيلي ولا زالوا محتفظين بطابعهم البدوي رغم استقرارهم ، ويذهب بارْتْ الى ان بعض قبائلهم أتت من الشرق اي من واداي ودارفور ، فهم على ذلك من العرب الذين هاجروا من صعيد مصر الى دارفور عن طريق الواحات الذي كان يبدأ اذ ذاك عند أسنا على مجرى النيـل ولا ينتهي الا في الفاشر ، ومن هؤلاء الأصيلة والجعمة والسلامات ، وبعضهم الآخر اتى من الكانم اي من طريق بحيرة تشاد ، وعرب الكانم انفسهم اتوا من طرابلس عن طريق فزان فكوّار ، ومن هؤلاء بني خزام واولاد حامد ، والاولون اقدم اذ انهم اتوا الى البرنو في القرن السادس عشر في حين ان الاخرين لم يدخلوا البرنو الا في القرن التاسع عشر ، وهؤلاء العرب جميعاً يستقرون ويزرعون ويطلقون مواشيهم في المراعي في فصل الامطار ، ويرحلون طلباً لمواقع الكلأ على السفوح العالية في مواسم الجفاف الطويلة ، فهم على هـذا انصاف مستقرين مثلهم في ذلك مثل الاعراب ، وطراز حياتهم بالفعل ونظامهم الاجتماعي والاقتصادي قريبان مما نجده عند الاعراب عامة .

وغير الكنوري والعرب تسكن بلاد البرنو جماعات مختلفة من اصول شتى منها الطوارق والهاوسا والفوليا .

الطوارق ، قبيل مغربي هاجر الى السودان عن طريق فزان وكوّار

فأما الطوارق فجماعات من بدو الصحراء الكبرى تعيش على الحدود الشمالية للسودان الاوسط ويتوغلون في الصحراء شمالاً حتى يصلوا الى جنوب المغرب معتمدين في سيرهم على آبار ومنازل لا يعرفها غيرهم ولا يصبر على السير اليها احد صبرهم . والطوارق ليسوا زنوجاً ولا بربراً ولا اعراباً وانما هم جنس مستقل بذاته لا نعلم عن اصوله الشيء الكثير ، ولكنهم معروفون لأهل الشمال الافريقي جميعاً باللثام الذي يحجبون وجوههم به فيما عدا العينين ، وهم معروفون كذلك بلون بشرتهم الاسود الرمادي الذي يعرف بالازرق وبنحافة اجسامهم وقوتها وصبرهم على السير الطويل واحتمال قسوة العيش الفقير في الصحراء .

والطوارق مسلمون ، ولكن اسلامهم سطحي لا يكاد يزيد على النطق بالشهادتين ، وقد كثرت الحملة عليهم في الكتب الاوروبية التي صدرت من اوائل هذا القرن ، فوصفوا بالغدر والقسوة والسلب والنهب ، ولكننا يندر ان نجد رحالة اوروبياً في النصف الاول من القرن الماضي ، الى سنة ١٨٨٠ يذكر أنهم سرقوه أو اعتدوا عليه أو على قافلته ، لأن الحقيقة انهم ليسوا لصوصاً ولا نهابين ولا قتلة وانما هم شوارد في الصحراء لا سند لهم الا شجاعتهم وسرعة عدو دوابهم ، وهم يرتزقون من العمل ادلة في الصحارى ، ومن ثم فهم يؤتمنون على حياة الناس واموالهم ، ولكن بلادهم فقيرة جداً وحياتهم قاسية وكثيراً ما تضطرهم سنوات الجفاف المتتابعة وتوالي الموتان في مواشيهم الى الاغارة على ما جاورهم من البلاد طلباً للرزق او التماساً للامان .

اما القول بأنهم نهابون سفاكون فقد نشأ بعد استقرار قواعد الاستعمار في الشمال الافريقي والسودان من طرف لطرف ، فقد رفضوا الخضوع للسيادات الجديدة وتصدوا للدفاع عن انفسهم وساءت احوالهم بتوقف طرق القوافل وحلول الطرق العسكرية محلها ، وهذه الطرق الاخيرة تقطعها

قوافل السيارات المسلحة التي قضت زمناً طويلاً في مطاردة الطوارق والقضاء عليهم ، وبعد صراع طويل اتجه نفر منهم الى الاستقرار فيما قرب منه من البلاد وشجعتهم السلطات الفرنسية والانجليزية على ذلك فأخذ امر الطوارق يتلاشى .

ولا نعرف شيئاً محققاً عن اصل الطوارق ، والرأي السائد دون تحقيق انهم أوزاع من شتى قبائل السودان التشادي والغربي ألقت بهم المنافسات والحروب القبلية الى الصحارى حيث تأبدوا في القفار واتخذوا بعض الآبار مراكز ، واشتغلوا بنقل المسافرين والمتاجر او بالغارة على الاراضي الخصبة اذا اضطرتهم الظروف الى ذلك ، وانضاف اليهم بعد ذلك جماعات من امثالهم واندرجوا فيهم فكثرت جماعاتهم .

ونحن لا نعرف على وجه التحقيق اصل لفظ الطوارق ولا ما هو معناه الحقيقي ، فالمعروف ان اهل افريقية يلفظون اسمهم توارج او تواري بدون اداة التعريف ، ومن هنا فربما كان لفظ الطوارق تعريباً لاسمهم الاصلي كما نقول الحوصة في تعريب اسم الهاوسا وهو تكلف لا معنى له ، لأن حرفي الفاء والصاد لا يوجدان في لغة الهاوسا ومن ثم فالحوصة قطعاً ليس اسمهم ، وقد رسمها ابن بطوطة هكذا لانه في الحقيقة كان يعرِّب ويُقَرب .

ولكن ابن خلدون يقدم لنا رأياً جديراً بالتأمل عن اصل الطوارق ، فهو يذهب الى انهم بقية المرابطين وبالذات بقية المسُّوفيين الذين قضوا سنوات طويلة في حرب طويلة مع الموحدين ، ولهذا فقد اورد ابن خلدون كلامه عن الطوارق في ذيل كلامه عن بني غانيَّة ، وجعل منه ختاماً للكلام عن المرابطين جملة ، وسأورد عبارته هنا على تواليها مصححة قدر الطاقة لان نصها في كل طبعات تاريخ ابن خلدون ، بما في ذلك طبعة بيروت الاخيرة والمفروض انها محررة مصححة ، مليئة بالاخطاء من كل نوع .

قال ابن خلدون بعد ان قص حروب الامير ابي العلا ادريس الموحدي

مع يحيى بن اسحق بن محمد بن غانية وطرده اياه من غدامس وودان وبسكره وتونس واخراج هذا المغامر الذي كان آخر عتاة الفرسان من بني غانية المسوفيين مع بقية الملثمين من كل بلاد الساحل الافريقي اولاً ثم من نطاق القبلات التي ذكرناها ثانية ثم تولّي زكريا الحفصي امور تونس واستقلاله بها وقيام الدولة الحفصية واجتهاد هذا الاخير في الحيلولة دون بني غانية المسوفيين ومن اتبعهم من الملثمين والعودة الى بلاد الساحل :

« فأحسن (ابو زكريا) دفاع ابن غانية عنها (اي عن افريقية وهي تونس) وشرّدَه في اقطارها ، ورفع يده شيئاً فشيئاً عن النيل من اهلها وديارها ، ولم يزل (يحيى ابن غانية) شريداً مع العرب بالقفار ، فبلغ سجلماسة من اقصى المغرب والعقبة الكبرى من تخوم الديار المصرية (في المشرق) . واستولى على بلاد ابن مذكود صاحب السويقة من تخوم برقة ، واوقع بمغراوة بوجر ما بين متيجة ومليانة ، وقتل اميرهم منديل ابن عبد الرحمن ، وصلَبَ شِلوَه بسور الجزائر .

« وكان (أي يحيى بن اسحق بن محمد بن غانية) يستخدم الجند ، فاذا سئموا الخدمة تركهم لسبيلهم الى ان هلك لخمسين سنة من امارته سنة احدى وثلاثين وقيل ثلاث وثلاثين [1] ، ودفن وعُفّي اثر مدفنه يقال بوادي الرّجوان قبلة الاربس ، وقيل بجهة مليانة من وادي شِلِف ، ويقال بصحراء باديس ومديد [2] ببلاد الزاب » .

« وانقرض امر الملثمين من مسوفة ولمتونة من جميع بلاد افريقية والمغرب والاندلس بمهلكة ، وذهب مُلكُ صنهاجة من الارض بذهاب ملكه وانقطاع امره . وقد خلف بناتٍ بعثهن – زعموا – الى الامير ابي زكريا بعهده بذلك الى علجة جابر (او صابر) فوضعهن في يده

---

١ يريد ٦٣١ او ٦٣٣ وهما تقابلان ١٢٣٣ و ١٢٣٥ ميلادية .

٢ في نسخ اخرى صحراء باديس وتقرن وهو الاصح .

وبلّغه وفاة ابيهن وحسنَ ظنه في كفالته اياهن ، فأحسن الامير ابو زكريا كفالتهن ، وبنى لهن بحضرته داراً لصونهن معروفة لهذا العهد بقصر البنات . واقمن تحت حراسته وفي سعة من رزقه موصولات لوصاة ابيهن بذلك وحفظهن لوصاته . ولقد يقال ان ابن عم لهن خطب احداهن فبعث اليها الامير ابو زكريا فقال لها : هذا ابن عمك واحق بك ، فقالت : لو كان ابن عمنا لما كفلنا الاجانب . الى ان هلكن عوانس بعد ان مُتِّعن من العمر بحظ » .

« اخبرني والدي — اي والد عبد الرحمن بن خلدون — رحمه الله انه ادرك واحدة منهن ايام حياته في سني العشر والسبعمائة تناهز التسعين من السنين قال : ولقيتُها ، وكانت من اشرف النساء نفساً واسْراهُن خلقاً واذكاهن حالاً ، والله وارث الارض ومن عليها » .

« ومضى هؤلاء الملثمون ، وقبائلهم لهذا العهد بمجالاتهم من جوار السودان حجزاً بينهم وبين الرمال التي هي تخوم بلاد البربر من المغربين وافريقية . وهم لهذا العهد متصلون من ساحل البحر المحيط في المغرب الى ساحل النيل بالمشرق ، وهلك من قام بالملك منهم بالعدوتين وهم قلّ من مسوفة ولمتونة كما ذكرناه اكلَتْهُم الدولة وابتلَعَتْهم الآفاق والاقطار وافناهم الترف واستلحمتهم امراء الموحدين » .

« وبقي من اقام بالصحراء منهم على حالهم الأول من افتراق الكلمة واختلاف البَيْن . وهم الآن يعطون طاعة لملوك السودان يجبون اليهم خراجهم وينفرون في معسكرهم » .

« واتصل بنيانهم على بلاد السودان الى المشرق مناظراً لسلع العرب على بلاد المغربين وافريقية » .

«فَكُدَ الة منهم في مقابلة ذوي حسان بن المَعْقِل عرب السوس الاقصى» .

« ولمتونة وأتنريكة (في مقابلة) ذوي منصور وذوي عبد الله بن المعقل ايضاً ، عرب المغرب الاوسط » .

« ولمطة في مقابلة رياح عرب الزاب وبجاية وقسطنطينية » .
« وتاركا في مقابلة سليم عرب افريقية » .

« واكثر ما عندهم من المواشي الابل لمعاشهم وحمل اثقالهم وركوبهم ، والخيل قليلة لديهم او معدومة ويركبون الابل الفارهة ويسمونها النُّجُب ، ويقاتلون عليهـــا اذا كانت بينهم حرب . وسيرها هَمْلَجَة وتكاد تلحق بالركض » .

« وربما يغزوهم اهل القَنْص من العرب وخصوصاً بنو سعيد من بادية رياح ، فهم اكثر العرب غزواً الى بلادهم . وهم يستبيحون من صبّحوه منهم يرمونهم في بطون مغائر . فاذا اتصل الصياح باحيائهم ركبوا في اتباعهم واعترضوهم على المياه قبل فصولهم من تلك البلاد ، فلا يكادون يخلصون ، وتشتد الحرب بينهم ، فلا يخلص العرب من غوائلهم الا بعد جهد ، وقد يهلك بعضهم ، ولله الخلق والامر » [1] .

وهذه العبـــارة الطويلة الحافلة بالمعاني تضع يدنا على اصل الطوارق وعلاقتهم بأهل المغرب والسودان وكيف تأبدوا في الفقر واتخذوه موطناً ، وهي تعطينا كذلك فكرة عن الطريق الذي سلكوه من الغرب الى السودان .

فالطوارق تعريب لاسم قبيلة من بقايا الملثمين هي تاركا او تارجا التي ذكرها ابن خلدون آنفاً تعربت الى طارقا وجُمِعَت على طوارق . وهـــذه القبيلة كانت في مقابلة بني سليم من بني هلال الذين استقروا جنوبـي افريقية .

وافريقية هي تونس الحالية على وجه التقريب ، واذا نظرنا الى الخريطة وجدنا ان المسافة من فزان الى جنوبـي تونس قريبة من المسافة من فزان الى ظرابلس ، ومن هنا فان طريق الملثمين الى بلاد السودان لا بد قد كان طريق فزان وكوّار ، وما دامت القبيلة الملثمية التي اعطت اسمها

---

١ العبر ، طبعة بولاق ، ٦/١٩٦ ـ ١٩٨ .

لبقايا الملثمين جميعاً هي تارجا التي كانت ضاربة جنوبي افريقية فلا بد ان طريق فزان كان هو المعبر الرئيسي لهؤلاء الملثمين الى السودان التشادي ، ويؤيد ذلك ما اشار اليه ابن خلدون من ان الامير ابا العلا ادريس الموحدي اوقع بالملثمين عند ودان وشردهم فيما يليها جنوباً من رمال الصحراء وواحاتها .

ويستبعد ان يكون الملثمون قد عبروا من المغرب عن طريق الصحراء الواسعة جنوبي المغرب الادنى والمراد به الجزائر ، لانه لم توجد هنا طرق مسلوكة معروفة ، ثم ان المسافات شاسعة ، ويحتاج الامر الى الشهرين والثلاثة بين مفاوز مهلكه ومهامه منعدمة المياه او نادرتها ، وقد اشار الى ذلك الادريسي عندما تكلم عن طريق الصحراء الخالص وقال ان المرابطين ساروا فيه ، واهم مرحلة ذكرها على هذا الطريق الصحراوي الصرف هي غات ، وهي من فزان وتقع في الطرف الشرقي منها .

واذن فعن طريق فزان ايضاً عبرت بقايا الملثمين واللَّمْتُونيين والمَسّوفيين الى السودان التشادي ، وهذه البقايا هي التي عرفت بالطوارق سادة الرمال واهل الرحلة في القفار ، وهم في صميمهم مرابطون واصلهم مجاهدون في سبيل الدين ، وقد اعطانا ابن خلدون مثلاً عن قُوَّةِ نسائهم بعد ان مال بهم الزمان « واكلتهم الدولة وابتلعتهم الآفاق » كما يقول ، ولا يمكن ان يكون رجالهم اقل عزة من ذلك وشهامة . وفي رمال الصحراء كان لهم تاريخ طويل ذهبت به الرياح ، ولكننا نجد ذكرهم في بلاد كوّار والبرنو وأدماوه والهاوسا وغيرها من ممالك الاسلام السوداني . وهم في عداد الجماعات الاسلامية التي عبرت الى السودان عن طريق فزان وكوّار .

ملاحظات اخيرة

واذن فقد كان طريق طرابلس ــ فزان ــ كوّار ــ تْشَاد طريقاً

رئيسياً سلكه الاسلام وسارت فيه حضارته الى السودان التشادي اي الى قلب افريقية ، واذا نحن ذكرنا الطريقين الاخرين اللذين سلكهما الاسلام الى قلب قارتنا وجدنا طريق فزان هو الاهم والأبعد اثراً ، فقد وصل الاسلام الى السودان الغربي عن طريق الساحل الافريقي الغربي من السوس الادنى واودغشت وسجلماسة الى حوض السنغال وما يليه جنوباً ، ورجال هذا الطريق وفاتحوه هم المرابطون اي مجموعة القبائل الصهناجية التي تابعت عبد الله بن ياسين ويحيى بن عُمَر واخاه ابا بكر بن عمر في عبور الصحراء عن طريق الساحل الاطلسي في نقل الاسلام الى السودان الغربي . ووصل الاسلام كذلك الى اقاليم السودان النيلي عن طريق مجرى النيل نفسه اولاً وعن طريق سكة الصحراء من أسنا الى الواحات الداخلة الى دارفور وكردفان ثانياً ، فأما طريق ساحل المحيط فلم يبدأ سلوكه بصورة منتظمة الا في النصف الثاني من القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي) ، اي بعد دخول اهل ممالك السودان النصرانية وهي عَلوه وَمَقُرَّه ودُنقُلَه في الاسلام ، وكانت وظيفة هذا الطريق اول الامر نقل الحجاج والمتاجر من قلب افريقية الى الحجاز عن طريق أسنا وقِفط والقُصَير وعيذاب ثم عبور البحر الاحمر ، اي انه كان طريق حج قبل كل شيء ، اما طريق طرابلس — فزان — كوّار فقد استعمل وحفل بالسابلة من اقدم العصور وعبر عليه الاسلام من ايام عقبة بن نافع والاسلام الاول اي من عصر الخلفاء الراشدين واستمر بعد ذلك عاملاً نشيطاً على مرّ العصور كأنه نهر سيال لا ينقطع منه الماء ، وحتى لو لم يكن هذا الماء فيضاً زاخراً فان استمراره على القرون كان كفيلاً بأن يجعله شرياناً من شرايين الحياة والحضارة في القارة الافريقية .

ان الطرق التي سلكها الاسلام في اربع من القارات الخمس كثيرة وعجيبة : واذا كنا نعرف مثلاً كيف وصل الاسلام الى مصر فاننا لا نعرف على وجه التحديد والتفصيل كيف اصبحت مصر بلاداً اسلامية ،

واذا كنا نعرف كيف وصل الاسلام الى الهند مثلاً فاننا لا نعرف كيف وصل الى اندنوسيا والفلبين وبورنيو . حقاً اننا نعرف انه وصل عن طريق التجار وقليل جداً من الدعاة المتحمسين ، وفي بعض الاحيان نجد ذكر امير او سلطان مسلم قام بفتح ناحية من هذه النواحي القاصية وادخل الاسلام فيها كما حدث مثلاً في حالة سلطان مَلَقَّا الذي فتح جزر خُولُو في اقصى الفلبين جنوباً وادخل الاسلام فيها ، ولكن هذه الجهود القليلة وغير المنظمة لا تفسر لنا ظاهرة كبرى مثل اسلام ارخبيل اندونيسيا كله . مثل هذا حدث بالنسبة لانتشار الاسلام في السودان النيلي والسودان التشادي وجانب كبير من السودان الغربي : قوافل تجار ورجال طرق صوفية وقليل من الدعاة المتحمسين . اما الباقي — وهو اضخم جانب من العمل — فقد قام به الاسلام نفسه ، نشر نفسه بنفسه بقوته الذاتية وفضائله وميزاته وتَفَتُّح القلوب له . ما من مرة تأملت هذه الظاهرة الا احسست ان الله سبحانه وتعالى لا يريد ان يكون لأحد على الاسلام فضل ، بل الفضل كله للاسلام على الناس ، وصدق الله سبحانه حيث قال : « يمنون عليك ان اسلموا ، قل لا تمنوا عليّ اسلامكم ، بل الله يمن عليكم ان هداكم للايمان ان كنتم صادقين » . (الحجرات ١٧) .

لقد اجتهدت في هذا البحث المتواضع ان اتتبع سير الاسلام ووصوله الى قلب افريقيا عن طريق سكة واحدة من السكك التي سلكها وهي سكة فزان وكوّار ، فتبينت الكثير من الحقائق الرئيسية المتصلة بالموضوع ، ولكن الذي لم اتبينه اكثر من ذلك ، فان الامر هنا متعلق بظاهرة حضارية سارت سيرها الوئيد في خفية عن العيون ، ولم يقيض الله لهذه الظاهرة من يعنى بها ويؤرخ لها ، ربما لان ذلك في ذاته مستحيل ، فان الامر لم يحدث دفعة واحدة كما رأينا في حالة فتح عقبة بن نافع لودان وفزان وكوّار ، ولكنه كان عمل التجار والمرابطين والدعاة ورجال الطرق الصوفية ، فاما التجار فقلما كانوا يدركون انهم ينشرون الاسلام فعلاً ،

واما المرابطون والدعاة ورجال الطرق الصوفية فعملهم يتجمع مع الزمن ، فهم ينشئون الزوايا والخلوات لانفسهم اولاً ، ثم تقوم هذه الزوايا باجتذاب الناس للاسلام ، وهذه افضل ما في الدعوة الاسلامية : انها دعوة سلمية تفعل فعلها بصورة طبيعية كأنها هي نفسها ظاهرة طبيعية .

لقد حكى فنسان مونتاي في كتابه الحافل بالمعلومات عن الاسلام في افريقية السوداء حكاية لها دلالتها ، قال انه في سنة ١٩٤٩ وصل قَس مبشر الى شمال داهومي ، واخذ يدعو لدينه ، وبعد ثلاث سنوات ، اي سنة ١٩٥٢ وصل داعية مرابطي من الفريق الذي يسمى هناك بالمرَابوط ، اي المرابطي واخذ يدعو للاسلام . وبعد عشر سنوات لم يكن القس قد نصّر الا حوالي ١٠ اشخاص في حين ان نصف القرية كان قد دخل في الاسلام على يد المرابطي [١] .

فما تفسير ذلك ؟ لقد حاول مونتـــاي ان يجيب على السؤال وابدى ذكاء بعيداً في التقصي والاستنتاج . وجدير بنا نحن ان نضع هذا السؤال امام اعيننا ونسعى للاجابة عليه بالذهاب الى هذه البلاد وتتبع سير الاسلام وهو يشق طريقه بنفسه ، وهذا في ذاته هو اقل ما يطلب إلينا وهو جهد العاجز ، لأن الامر يتعلق بالاسلام وهو ديننا ، وبافريقية وهي قارتنا ، وهذا يضع الموضوع وضعه الصحيح ، ويصوره على حقيقته بالنسبة لنا : موضوع مصير وموضوع بحث صبور ودراسات في نفس الوقت .

---

١ Vincent Monteil, *L'Islam Noir*. Editions du Seuil, Paris 1964 p. 49.

المراجع العربية

ـ احمد بك النائب الانصاري الطرابلسي ، المنهل العذب في تاريخ طرابلس الغرب ، مكتبة الفرجاني ، طرابلس الغرب ، ليبيا ، الجزء الاول ، بدون تاريخ .

ـ ابن بطوطه ، ابو عبد الله محمد ، تحفة النظار في غرائب الامصار وعجائب الاقطار ، القاهرة ١٩٣٤ .

ـ الادريسي ، الشريف ، وصف المغرب والصحراء الكبرى ، قطعة من نزهة المشتاق نشرها مع تعليقات هنري بيريس ، الجزائر ١٩٥٧ .

ـ المغرب وارض السودان ومصر والاندلس مأخوذة من كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق ، بتحقيق دي خويه ودوزي ، لايدن ١٨٦٤ .

ـ الاستبصار في عجائب الامصار لمؤلف مجهول من اهل المغرب الاقصى عاش في القرن الثاني عشر الميلادي ، بتحقيق سعد زغلول عبد الحميد ، مطبعة جامعة الاسكندرية ١٩٥٨ .

ـ تذكرة النسيان في اخبار ملوك السودان ، نشره هوداس ، باريس ١٨٩٩ .

ـ حسن ابراهيم حسن ، انتشار الاسلام والعربيـــة فيما يلي الصحراء الكبرى وشرق القارة الافريقية وغربها ، القاهرة ١٩٥٧ .

ـ حسن احمد محمود ، الاسلام والثقافة العربية في افريقية ، القاهرة ١٩٥٧ .

ـ ابن حوقل النصيبي ، ابو القاسم ، كتاب صورة الارض ، القسم الاول بتحقيق دي خويه ثم راجعه وطبعه طبعة ثانية J. H. Kramers في لايدن بهولندا سنة ١٩٣٨ .

ـ ابن عبد الحكم ، عبد الرحمن بن عبد الله ، فتوح مصر واخبارها (المغرب والاندلس) نشره Charles C. Torrey في نيوهيفن بالولايات المتحدة سنة ١٩٢٢ ، واعادت طبعه مكتبة المثنى في بغداد بالاوفست .

ـ طبعة ثانية للقسم الخاص بفتح المغرب والاندلس نشره Albert Gateau

مع ترجمة فرنسية في مدينـــة الجزائر سنة ١٩٥٧ ضمن سلسلة رقم ٢ Bibliothèque Arabe-Française

ـ احمد توفيق المدني ، جغرافية القطر الجزائري (الطبعة الثالثة) ، دار المعارف بمصر ١٩٦٤ .

ـ ابن خلدون ، العبر وديوان المبتدأ والخبر (بولاق ١٢٨٤) جـ ٦ .

ـ البكري ، ابو عبيـــد الله بن عبد العزيز ، المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب ، وهو الجزء الخاص بافريقية نشره البارون ماك جوكين دي سلان في الجزائر سنة ١٨٥٧ واعادت نشره بالاوفست مكتبة المثنى في بغداد .

ـ حسين مؤنس ، فتح العرب للمغرب ، القاهرة ١٩٤٧ .

ـ السعدي ، عبد الرحمن ، تاريـخ السودان ، حققه ونشره هوداس في باريس سنة ١٨٩٨ .

ـ صلاح صبري ، افريقية وراء الصحراء ، مجموعة الألف كتاب ، مكتبة النهضة المصرية سنة ١٩٦٠ .

ـ عبد الرحمن زكي ، الاسلام والمسلمون في شرق افريقية ، القاهرة سنة ١٩٦٥ .

ـ المراجع العربية للتاريـخ الاسلامي في غرب افريقية (منشورات الجمعية المصرية للدراسات التاريخية) ، القاهرة ١٩٦٨ .

ـ ابن فضل الله العمري ، مسالك الابصار ، ترجمة فرنسية للجزء الخاص بالمغرب عملها جودفروا ديمومبين ، جوتنر ، باريس ١٩٢٧ . (انظر المراجع الافرنجية تحت (Al Omary)

ـ محجوب زيادة ، الاسلام في السودان ، سلسلة اقرأ رقم ٢٠٨ ، دار المعارف القاهرة ١٩٦٠ .

ـ محمد بن عمر التونسي ، رحلة الى واداي .

ـ محمود كعت التمبكتي ، تاريـخ الفتاش في اخبار البلدان والجيوش واكابر الناس ، بتحقيق هوداس وديلانوس باريس ١٩١٣ .

المراجع الأجنبية

— Agostini, E. di, *Le popolazione della Tripolitania. Notizie etniche — Storiche.* Tripoli, Governo della Tripolitania Ufficio Politico-Militare, 2 vols. 1917.

— *La popolazone della Cirenaica.* Benghazi, Governo della Cirenaica 1922.

— *A. Handbook of Libya* — Naval Staff Admiralty. Oxford Un. Press 1920.

— Ahmadi (Sheikh Mubârak Ahmad) *Kurani Tukufu.* Narrobi, 1963.

وهي ترجمة سواحلية للقرآن الكريم مع تفسيره بنفس اللغة .

— Al-Omari (Ibn Fadl-Allah), *L'Afrique moins l'Egypte* (Masâlik al-Absâr). Traduction française par Gaudefroy - Démonbynes, Paris, Geuthner, 1927.

— Al-Sa'di, *Tarikh al-Sudan,* trad. Fr. par O. Houdas, Paris, Leroux, 1900.

— André, P.J. (Capitaine) *L'Islam Noir,* Geuthner, Paris, 1924.

— Bagnold, Ralph A., *Libyan Sands, Travels in a dead world,* London, Hodder and Stoughten, 1935.

— Barth H., *Reisen und Entdeckungen in Nord — und Central Afrika* 5 Bände, Gotha 1857 - 1858.

— Baulin, Jacques, *The Arab Role in Africa,* (Penguin) 1962.

— Blau, O., *Chronik der Sultane von Bornu.* ZDMG. II, 1852.

— Carbou, H., *La région du Tchad et du Ouadai,* Paris 1912, (Publications de l'Ecole des Lettres d'Alger. Tome XLVII — XVIII).

— Cooley, W., *The Negroland of the Arabs,* London 1941.

— Denham and Clapperten, *Narrative of Travels and Discoveries in Northern and Central Africa,* London 1826.

— Diop, Cheikh Anta, *L'Afrique Noire précoloniale,* Paris 1955.

— Duveyrier, *Exploration du Sahara, Les Touaregs du Nord.* Paris, 1864.

— Evans Pritchard, E. E., *The Sanusi of Cyrenaica,* London, Oxford University Press, 1954.

— Froelich, J. C., *Les Musulmans d'Afrique Noire,* Paris (Ed. de l'Orante, 1962).

— Ghisleri A., *Tripolitania e Cirenaica del Mediterraneo al Sahara.* Milano, 1912.

— Hajjaj, Salem A., *The New Libia, A geographical, Social, Economic and Political Study.* Tripoli, Libya 1967.

— Horneman, *Tagebuch einer Reise nach Murzuck,* Weimar 1802.

— Ibn Khaldoun, *Histoire des Berbère et des Dynasties Musulmanes de l'Afrique Septentrionale,* 4 vols.

وهي الترجمة الفرنسية للجزئين السادس والسابع من تاريخ
ابن خلدون قام بها ونشرها في باريس البارون دي سلان وأعاد
نشرها ومراجعتها بول كازانوفا ، باريس جوتنر ١٩٢٥ .

— Lennoy de Bissy, *Carte d'Afrique.* Feuille 12, Mourzouk, Paris 1912.

— Leon l'Africain, Description de l'Afrique, Alexis Epaulard ترجمة فرنسية قام بها Maisonneuve, 1956, 2 vol.

— Lewicki, Tadensz, *Quelques extraits inédits relatifs aux voyages des commerçants et des missionnaires ibadites Nord-africain* aux pays du Sudan Occidental du Moyen Age. Cracovie, Folia Orientalia II, 1960.

— Lyon, *A narrative of Travels in Northern Africa,* London, 1821.

— Massignon Louis, *Causes et Modes de la propagation de l'Islam parmi les populations païennes de l'Afrique.* Rome Atti dell'VIII Convegno, Reale Accademia d'Italia, 1940 (pp. 5-12).

— Monteil, Charles, *De St. Louis à Tripoli,* Paris 1894.

— Nachtigal, *Sahara und Sudan.* Leipzig — Berlin, 1879-1889.

— Ngema, Albert, *L'Islam noir.* Paris, Présence Africaine, No. 8-9 Mars 1950.

— Norris, *Grammer of the Bornu or Kanuri language,* London 1853.

— Palmer, H.R., *The Bornu Sahara and Sudan,* London 1936.

— Rohlfo, «*Land und Leute von Fesan*» *in Petermanns* Mitt. Erganzeband V No. 21.

— Schultz, A., *The Sultanate of Bornu* — Translated by P. A. Benten, Oxford 1913.

— Slimar, P., *Note on the socio-economic and cultural role of Sufibrotherhoods and Maraboutisme in the modern Maghrib.* Acra, First Africain International Congress, Dec. 1962.

— Stenning, Derrick J., *Savanrah Nomads,* Oxford 1959.

— Suret-Canal, Jean, *Afrique noire occidentale et centrale Géographie, Civilisation, Histoire.* Paris, Ed. Sociales, 2ème éd. 1961.

— Trimingham, J. Spencer, *Islam in West Africa,* Oxford 1959.

— *A History of Islam in West Africa,* Glasgow 1962.

— Trimingham, J. Spencer, *Islam in Ethiopia,* Oxford 1950. *Islam in the Sudan,* Oxford 1955.

— Urway, Ives, *Histoire de l'Empire du Bornu,* Paris 1947.

— Vincent Monteil, *L'Islam noir* (Ed. du Seuil, Paris, 1964.

— Yver, George, *Encyclopédie de l'Islam, article :* Bornu — Kanem. Maurice de La Fone. مادة واداي كتبها

حسين مؤنس